المحور الرابـع

حيوات الطفلات في الحروب:
مقالات ووجهات نظر وشهادات

بريد الذاكرة الهاربة من الحرب.. العالِقة في براثنها

بيسان طي

«أنتم جبناء، أنتم من صوَّت لهذه الطبقة التي تحكمنا»، هكذا رمى أبناء الجيل المُراهق في وجهنا بحقيقةٍ ما يفكِّرون به تجاه جيل الآباء والأمّهات في لبنان اليوم.

في حراك العام 2019 الشعبيّ في لبنان، أو ما يُسمّى بتاريخ انطلاقته 17 تشرين[1]، تردّدت أكثر من مرّة، على شاشات التلفزة بشكلٍ خاصٍّ، صرخات طلّاب المرحلة الثانويّة، وهُم يصيغون بتعبيراتهم الخاصّة الغضب ضدّ الجيل الأكبر. بين الغاضبين، غاضبات من جيل المُراهقين، وبين المغضوب عليهم، بنات جيلي، أمّهات يتحمّلن هنّ أيضاً مسؤوليّة بقاء المنظومة الحاكمة. وقْع التّهمة، لا الصرخة، ثقيل وجارح، بالتحديد لأنّه يَضع جيل الحرب[2] ـ المولود خلالها ـ في دائرة لم يتنبَّه إلى

(1) انطلقت في 17 تشرين الأوّل/أكتوبر 2019 مَوجة من الاحتجاجات الشعبيّة التي شاركت فيها أعدادٌ كبيرة من اللّبنانيّين، تصل في معظم التقديرات إلى مئات الآلاف. استمرّت الاحتجاجات بوتيرةٍ مُختلفة لأكثر من شهرَيْن، وقد عمّت مختلف المناطق اللّبنانيّة، وشارك فيها مواطنون من بيئات وانتماءات سياسيّة مُختلفة، ورُفعت شعارات في وجه مكوِّنات السلطة اللّبنانيّة، وذهبت بعض المجموعة إلى المُطالبة بإسقاط الحكومة وإنهاء عهد البرلمان القائم والمُطالَبة بانتخاباتٍ نيابيّة مبكرة، وتميّزت بُمشارَكة مجموعات أخرى في الاحتجاج ضدّ السياسات المصرفيّة في البلاد.

(2) المقصود بهذا التعبير هو الحرب الأهليّة اللّبنانيّة التي استمرّت لنحو 15 عاماً (1975 ـ 1990)، وتوقّفت بفعل توافُقٍ خارجيّ =

مسؤوليّته عنها، ولأنّ العبارات التي أُطلقت تُبيِّن إلى حدٍّ كبير خَيبة الجيل الأصغر وانقطاع التواصُل ما بين هذَين الجيلَين، أدركنا أنّ البريد لم يحمل رسائل مُتبادَلة بين الجيلَيْن.

هذه المقالة هي مُحاولة لملء فراغ البريد المعطَّل، وهي رسالة لا تحمل تبريراً، إنّما تفتح النقاش، كما رسائل العرب قديماً، في أبواب عدّة، لعلّ الكلام المكتوب يردم الهوّة التي صنعها الـ«لا» كلام.

في باب المراهقة ومرآتها

تحمل ملامح مرحلة المُراهَقة كما عاشها جيلنا، المُراهَقة في ظلّ الخطر على الحياة، الكثيرَ من الندوب والمَخاوِف، وتحمل قلقاً لا ينطفئ. هذه الجروح وإن تمّت تغطيتها بالمساحيق أو عمليّات التجميل أو آليّات الإنكار المتعدِّدة، فإنّها عميقة تطفو آثارها عند كلّ انفجارٍ أو اهتزازٍ أمنيّ، وهي المعوِّق الأوّل والسبب الرئيس لانكفاء بنات وأبناء جيل الحرب طويلاً عن السياسة، ومن أسباب الاستسلام، غير المُعلَن أحياناً، لفرحة الوعد بحياةٍ آمنة، حياة لا تتحكّم بها لغة البنادق والقصف المدفعيّ والسيّارات المتفجِّرة المُتنقّلة، لغة الموعد اليوميّ مع الحواجز التي تَمنع الحريّة وتُقيِّد الحياة.

ثمّة ما يجمع بيننا، نحن وأنتنّ، تلك الأوقات الطويلة التي نُمضيها أمام المرآة. لكنّنا وُلدنا وعشنا المُراهَقة في سنوات الحرب، كنّا حين نتزيّن للخروج من المنزل ننجح أحياناً في لفْتِ أنظار الشبّان، أو كانت مشاويرنا تنتهي أحياناً أخرى في مخبئٍ ما، نُهرول وقد بَعْثَرت جمالَنا خطوطٌ من سواد الدخان الصاعد من تفجير، أو دماءُ ضحيّة وقعت بطلقة قنّاص. كان ثمّة طريق نحو الحريّة نشقُّه بعنادٍ أو مُوارَبة أو مُمالأة بحثاً عن مساحة للحبّ، للشقاء، للطريق نحو «الآخر»، في بلد الكانتونات التي كانت مُقفَلة بسلاح الدم والنار، أو كنّا نستسلم بفعل الدعاية المكثَّفة لحدود كانتوناتنا كأنّها مساحة العالَم كلّه.

كنّا نكبر في الحرب، وكانت الحرب تغرق أكثر فأكثر في الوحول الطائفيّة.

نحن أردنا أن نكون أنتنّ، أن نعوّض ما فاتنا بالسطو على الشباب الدائم، جاءت عمليّات التجميل كمعول يمدّ نضارة المُراهَقة وفترة الشباب الأولى، وغرفنا من الحياة ما

= أميركيّ ـ سعوديّ ـ سوريّ، تمّت ترجمته من خلال مؤتمر الطائف الذي عُقد في مدينة الطائف السعوديّة، وانتهى بإعلان وثيقة (دستور مجدّد) للبنان.

لم نشبع منه ونحن صغيرات. لم نقُم بحياكة شالات الصوف لكنَّ، كما فعلتْ أمّهاتنا، ولم نروِ لكنَّ شيئاً عن البلاد، وعن النِّزاعات والتحدِّيات التي تُمزِّق منطقتنا، أردنا لكنَّ حياةً هانئة، في قوقعةٍ ورديّة منفلتة من كلّ ركيزة، ولا تطلّ على الواقع في بلادنا.

أردنا أن نكون ما دفعناكنّ إليه، أو ما حلمنا بتأمينه لكنّ، نحن بنات الجيل الذي أُتيح له قسطٌ وفيرٌ من التعليم، أردنا أن نكون ـ بالمال ـ ما يتحقّق لليافعين في الخارج: مساحات من التدريب الرياضيّ، والموسيقى، والفنون التشكيليّة والغناء و...، لكنّنا لم نتعلّم كيف نكتشف الهواية داخل كلّ واحدة منكنّ، أردنا اكتمال الصورة التي لم تتحقّق لنا فقط.

في باب العَيش والحريّة

لمّا انتهت الحرب، كنّا مُتعبات ومُتعبين من الأقفاص التي سُجنّا فيها منذ الولادة، كنّا نبحث عن آمالٍ للعيش، مساحات للفرح، لتنشُّق هواء لا ينقطع حين تتكدّس الأجساد لأيّام في الملاجئ. تزامنت نهاية الحرب مع ولادة «عالم جديد» تقوده الولايات المتّحدة وحدها، أُخذنا بإرادتنا نحو نموذجٍ اقتصاديّ شموليّ يُسيطِر على العالَم. كانت النيوليبراليّة[3] تُراقصنا كما تُراقِص الأفعى جمهور الحاوي، إذ إنّ السحر الذي مارسته

(3) ظهر مصطلح النيوليبراليّة لأوّل مرّة في العام 1884، وهو وفق تعريف الموسوعة الفرنسيّة، عقيدة تحمي الحريّة القصوى للشركات وترفض تدخُّل الدولة في شؤون السوق والحياة العامّة إلّا بحدودٍ نادرة، للمراجعة:
https://www.encyclopedie.fr/definition/n%C3%A9olib%C3%A9ralisme
في ثلاثينيّات القرن العشرين، بدأت مُحاولاتُ إعادة تعريف النيوليبراليّة، لتحديد حجْم تدخُّل الدولة في الاقتصاد، لكنّ هذا المُصطلح بقيَ قليل التداول في الأدبيّات العالَميّة السياسيّة والاقتصاديّة، حتّى بداية السبعينيّات من القرن العشرين، من جهة بسبب تزايُد قوّة مدرسة فريدمان الاقتصاديّة وحضورها، ومن جهة أخرى مع تولّي دونالد ريغان الرئاسة في الولايات المتّحدة ومارغريت تاتشر في بريطانيا، وقد أطلقا ما يُعرف بالعصر الذهبيّ الأوّل لسيطرة النيوليبراليّة في الفكر والاقتصاد من حيث تضخيم عمليّات الخصخصة وتولّي القطاع الخاصّ والشركات الكبرى العمليّات الماليّة والأسواق، على حساب القطاع العامّ، وفق ما جاء في كتاب دايفيد هارلي
«A Brief History Of Neoliberalism» (Oxford University-2005).
شكّلت النيوليبراليّة عقيدة للمنظومة المُعَوْلَمة بقيادة الولايات المتّحدة كقطبٍ عالَميّ واحد منذ بداية التسعينيّات من القرن الماضي مع تولّي جورج بوش الأب الرئاسة في الولايات المتّحدة وتقدُّم المُحافظين الجُدد في السيطرة على مفاتيح الحُكم في بلاده، وتُرجم ذلك على المستوى العالَميّ من خلال مفاعيل حرب الخليج في العام 1991. وقد سمحت هذه المنظومة بسنّ قوانين ضرائبيّة وماليّة وبواقع اقتصاديّ لصالح الشركات العابرة للقارّات، وفق كِتاب انتصار اللّاعدالة «The Triumph of injustice», Emmanuel Saez & Gabriel Zucman, Washington DC, 2019). نُشير في هذا الإطار إلى أنّ السلع الأغلى سعراً أو ما يُعرف بالـ Brand، تُشكِّل جزءاً من هذه الشركات =

الفكرة النيوليبراليّة تتمثّل بوعودها بالاستقلال الفرديّ وقدرة المُجتمع على تنظيم نفسه بنفسه. هكذا في مُواجَهة منظومات الوصاية القديمة وحرّاس الفضيلة والانضباط، بَدَتِ النيوليبراليّة تُروِّج لأفرادٍ مُتحرِّرين من القيود يتمتّعون باستقلاليّة «مقاول يتعهَّد حياته بذاته»[4].

أخذناكنّ معنا إلى غواية ذلك السحر، كنّا نسبح فيه كأنّه جنّات من نعيم، وتربيّتنّ بفضل استسلامنا لهذه الغواية على مبادئ النيوليبراليّة ومفاهيمها وإيقاعها وأدواتها، كأنّه ليس في الكون أيّ خيار آخر، كأنّها كتلة «الصحّ» المُطلق، كأنّها قوانين الكَون كلّه منذ الخلق إلى نهاية التاريخ. صارت النيوليبراليّة إله تفكيركنّ. صارت سجناً آخر تدرنَ في فَلكه، كالمُسافرات على مَتن كبسولة مَرميَّة في فضاء هذا الكَون السحيق المُختصر للحياة الاجتماعيّة والاقتصاديّة والفرديّة باسم الحريّة، وحيث الخروج منها هو الموت الأكيد.

نحن كبرنا في عالَم يدور على صراعٍ دوليّ[5]، فيه قطبان، نموذجان يُمكن الاختيار بينهما، النموذج اللّيبراليّ والنموذج الشيوعيّ إلى حدٍّ كبير. أمّا أنتنَّ فقد تفتّحت عيونكنّ على عالَم قطبٍ تاريخيّ جديد، إرساؤه تمّ كمنظومةٍ ليبراليّة ـ رأسماليّة، وقد اجتاحت كلّ مَيادينَ الحياة الاجتماعيّة لمصلحة الطغمة الماليّة. الاستغلال الاقتصاديّ كان محرِّك السطوة السياسيّة والأيديولوجيّة. هذه السلطة، بخلاف الأشكال الأخرى من التوتاليتاريّة، إنّما هي مرجع ذاتها لأنّ المُمارسات القائمة فيها يقوم تبريرها من خلال فكرٍ جديدٍ يتمّ ترويجه عبر وسائل الإعلام وتُنفِّذه المؤسّسات الدوليّة[6].

ما زال هذا الخطاب يُشعرنا بالنشوة، يُداوي شيئاً من الحرمان، يوهمنا بأنّ شبح الفقر لن يطولَ، كما أُوهِم مئات الملايين من النساء والرجال حول العالَم بحياة الترف، فانتشرت بين فئاتٍ واسعة من أبناء الطبقات الوسطى ثقافة الـ«ماركات» والاقتراض بفوائد عالية

= العابرة للقارّات، ومعظمها يقوم على اسم الشركة الغربيّة، فيما تتمّ عمليّات التصنيع في دولٍ فقيرة ويتلقّى عمّال المعامل فيها رواتب شديدة الانخفاض قد لا تزيد على 26 دولاراً في الشهر، وفق تقارير منظّمة Attac.

(4) Grégoire Chamayou, *La société ingouvernable* (Paris: Editions La Fabrique, 2019), 5.

(5) الصراع الدوليّ المقصود يتمثّل بالحرب الباردة، وقد دارت رحاها بين الولايات المتّحدة ذات النظام الاقتصاديّ الحرّ وحلفاءٍ لها من جهة، والاتّحاد السوفياتيّ والكتلة الشرقيّة أو الدول التي تبنَّت الفكر الشيوعيّ أساساً للحُكم. انتهت الحرب الباردة بهزيمة الاتّحاد السوفياتيّ وتفكيكه ابتداءً من العام 1989، وكانت حرب الخليج في العام 1991 إعلاناً لانتصار الولايات المتّحدة وسيطرتها المُطلقة كقوّةٍ عظمى وحيدة.

(6) Jacques Langlois, *Le libéralisme totalitaire* (Paris: L'Harmattan, 2013), 7.

لتأمين مستوىً معيشيّ يُحاكي سلوكيّات الأغنياء، البرجوازيّين منهم أو الأثرياء الجُدد، وصار الفقراء أيضاً يحلمون بتقليد أبناء الطبقة الوسطى.

حوّلنا قوّة العمل ورأسمالنا إلى ما يُشبه لعبة القمار، نقترض لنتوهَّم أّننا أغنياء، ولم نَقُلْ لكُنَّ أنّ الحياة خارج «المول» أجمل، وأنّها مُمكنة إن انطفأ العالَم الافتراضيّ قليلاً.

في باب الهجرة

لمّا انتهت الحرب، أو بعد انتهائها بسنواتٍ معدودة، شُرِّعت لنا أبواب الهجرة إلى دول الخليج العربيّ بشكلٍ خاصٍّ، وإلى أميركا الشماليّة، كما لم تُقفل الحدود الأوروبيّة نهائيّاً في وجهنا. حُلم الهجرة يجمعنا، لكنّ الفَرق بيننا شاسع، فأنتنّ اليوم من عالَم ترتفع فيه الحدود بشكلٍ غير مرئيّ، وتشتدّ فيه البطالة وتنكشف عَورة الاقتصاد الحرّ المُعوْلَم، ما يَجعل أيَّ أُفقٍ للخروج من البلاد لا يعدو كونه مساحةً لتجربة العيش بشظف، برواتب من فتات الخبز والدولار. هذه الهجرة التي يُمكن بالطبع مناقشة كلّ آثارها في مَوقعٍ آخر، في رسالةٍ أخرى، صارت خطوة صعبة التحقيق، شديدة الصعوبة، العالَم لم يَعُد في حاجة إلى غرباء إلّا نادراً.

بينما الهجرة في عهدنا كانت مشرَّعة، اتّسع لنا سوق العمل في أكثر من دولة. ففترة ما بعد الحرب الأهليّة (1975 ـ 1990) شهدتْ مَوجةً مكثَّفة من هجرة الكادرات وأصحاب الكفاءات إلى الغرب وإلى دول الخليج[7]، بسبب المنظومة الاقتصاديّة التي ترتكز على التجارة والسياحة والمصارف. وهي منظومة تـمّ تدعيمها في التسعينيّات وتبنَّتها الحكومات المُتعاقِبة ربطاً بالسياسات الاقتصاديّة النيوليبراليّة. تلك السياسات التي شهدت انتصارها وبداية حُكمها العالَميّ قلّصت سوق العمل الداخليّ، ووفق دراسة أجرتها الجامعة اليسوعيّة في لبنان قُدِّر حجْم الهجرة السنويّة في مطلع الألفيّة الثانية ما بين 35 ـ 55 ألف شخص. كان السبب الرئيس للهجرة هو السعي وراء العمل اللّائق، هكذا حين حلّ العام 2008، أي عندما كنتنَّ في سنوات العمر الأولى، كان ثلث القوّة العاملة اللّبنانيّة في دول الخليج العربيّ، وفق وزير الماليّة حينها محمّد شطح[8]. وقد

(7) Paul Tabar, *Lebanon: A country of emigration and immigration*, (Beirut: LAU Press, 2010), 8.

(8) «Lebanon Starts to Feel the Pinch of Financial Crisis», *Reuters,* December 6, 2008.

كانت هجرة مترفة غالباً تلك التي نَعِم بها جيلنا، مزيّنة بوعد الاندماج الأكبر في المنظومة النيوليبراليّة، في متاهات المولات وكواليس الاستهلاك ببذْخٍ مُفرط، بإدمانٍ كثيف. لم نرَ في المُجتمعات التي ذهبْنا إليها سوى الفيترينة العالَميّة، ففكّكت الهجرة أيَّ ارتباطٍ مُمكن بالطبقات التي ننتمي إليها حقّاً، صرنا كما مريض موليير برجوازيّين وهميّين، وأورثناكنّ هذا الوهْم بشروطِ الخضوع لعقدةِ نقْصٍ تجاه أدوات الدولة الأقوى في العالَم، لا بشروط امتلاك أدوات المعرفة والبحث والتحليل والنقد.

في باب الذاكرة

عالمانا مُختلفان على الرّغم من التقاطُعات العصريّة بيننا، وقد يكون التواصل شبه مُنقطع لأنّنا لم نُبلْور ذاكرةً مُشتركة تجمعنا. نحن وأنتنّ، لم نسعَ لبناء هذه الذاكرة، استسلمنا نحن لما تُعدُّه لنا سلطة السياسة وسلطة رأس المال، وسلطة الإعلام التقليديّ من جهة، ووسائل التواصل الاجتماعيّ من جهة أخرى. تلك الساعات الطويلة التي تسجنَّ أنفسكنّ فيها، ونذوب نحن في عالَمِها، ساعات الانشغال بشاشة الهاتف والعالَم الافتراضيّ جَعلتِ الكلامَ بيننا قليل، ألَم يَكتب بورخيس أنّ الكلمات هي رموزٌ تتطلّب ذاكرة مُشترَكة[9]؟

في المقابل فإنّ الجيل الأكبر يبدأ ببلْورة صورته الاجتماعيّة بالمُقارَنة مع جيل أبنائه[10]. لكنّنا، قبل أن يُعلن الانهيار، لم نكُن نريد أن نذهب عميقاً في فضْحِ الجراح، ولم نَبحث عن مُحاسَبة مُجرمي الحرب، ولا أصحاب السلطة في السياسة والمال، نحن عشْنا واقعاً سياسيّاً صعباً حتّى بعد انتهاء الحرب، وكانت مُواجَهَتُه تعني أن نتخلّى عن الحياة المُتخيَّلة الهانئة، لذلك هربنا من الذاكرة، ذاكرة الماضي وذاكرة الحاضر، مُتجاهلين أنّه «من دون الذاكرة لا يقوم عقْد، ولا تحالُف، ولا ثمّة مُعاهَدة مُمكنة. بلا الذاكرة لا وجود للوفاء كقيمة، ولا ثمّة وعود... أي أنّ العقْد الاجتماعيّ لا يقوم بلا الذاكرة، ولن تكون بذلك المُجتمعات أمراً مُمكناً، ولا هويّة الفرد ولا الهويّة الجماعيّة. الذاكرة شرط المعرفة،

(9) Borges J L, Œuvres complètes 1975-1985, Barcelone, Maria Kodama y Emercé Editores, 1989, p 31.

(10) Attias-Donfut Claudine, «Rapports de generation et parcours de vie,» *journals.openedition,* 27, June, 2013 (en ligne) https://journals.openedition.org/enquete/82.

من دونها تختلط الأمور ببعضها ويصير كلّ شيء مهدَّداً بالموت... لأنّها في أساس كلّ عمليّة نقل، هي القاعدة المؤسِّسة للثقافة»[11].

في باب المُصارَحة

لا تبغي هذه الرسالةُ البحثَ عن مبرِّرات ولا إدانة جيل الحرب بما اقترفه من دون وعي، من تثبيتِ منظومةٍ أخطبوطيّة في السياسة والاقتصاد والثقافة، حملت آمال الجيل الأصغر ومُستقبله إلى المجهول، ولا تنوي الرسالة جلد الجيل الذي تنتمي إليه المُراهقات اليوم.

هذه الرسالة تحاول أن تضيف إلى النقاش العامّ دعوةً للبحث عن نقاطِ ضعفٍ متراكمة جعلتِ النظام الطائفيّ أكثر شراسة وحضوراً، على الرّغم مِن كلّ ادِّعاءات الحداثة، بل الانتماء إلى الحداثة المتأخِّرة وعصر التسريع؛ إذ يُواجه كلّ جيل حقيقةً اجتماعيّة وتاريخيّة، وترتسم شروطه الاجتماعيّة من خلال القِيَم الخاصّة بهذه الحقيقة إضافة إلى ما يُفرض عليها من أعباء وتناقضات. من هذا المُنطلق يُحدِّد كلُّ جيل المحتوى الوراثيّ الذي سيحمله من الأجيال التي سبقته، كيف سيستوعبه أو يرفضه[12]. قد تكون خطيئتنا أنّنا لم نَفهم تراكُمات العنف الذي واجهته حيواتنا، من عنف الحرب إلى عنف معايير السوق والمُنافَسة الحادّة وسطوة المظاهر المُتبلْورة في المَظهر والمَلبس واللّغة كبابٍ شبه وحيد للنجاح والعيش.

ها هي الأقفاص تُطبِق أبوابها مجدَّداً تضع جيلكنّ في دائرة القلق. والخوف ـ كلّ الخوف ـ هو في ألّا ترفضْنَ ما يُعوِّق أمورَ الحياة الصعبة التي تنتظركنّ، وأن تُكرِّرْنَ الخطأ الذي وقعنا فيه فتكون الاستكانة للمعايير والأفكار التي تَوهّمنا أنّها أبعدت شبح الحرب وأَخذتنا إلى نعيمِ العيش والطيش والشباب الدائم.

أمّا بالنسبة إلى تلك الرغبة الطاغية لدينا بالهروب من إمكانات الحرب أيّاً كان الثمن، فنَعِدُكُنّ بأنّنا سنكرِّر نهجنا، الحرب في قاموسنا لا تعني الموت فقط، بل تعني الـ «لا» حياة، وهذا ما يُثير الرعب والاختناق ويُراكِم عنفاً فوق طبقات العنف المُندثِر في ذاكرتنا.

لقد أطلتُ الكتابة، ولم يَنتهِ الكلام، وللنقاش تتمّة طويلة، فتفضّلْنَ ختاماً بقبول فائق الحبّ والاحترام.

(11) Candau Joël, *Anthropologie de la mémoire*, (Paris: Armand Colin, 2005), 2.

(12) Anne Muxel, article sous le titre de «Temps, mémoire, transmission», *Histoire et Anthropologie,* n 24 (l'Harmattan, 2002): 14-15.

Les métamorphoses de l'adolescente en temps de guerre

Bella Aoun

La guerre sous ses formes diverses, historique, militaire, civile, contemporaine reste incrustée, imaginée ou vécue dans la mémoire de l'individu. La guerre s'inscrit et ne s'efface pas. Elle se fait oublier mais ses traces réapparaissent sous différents masques.

Le Liban, riche par la diversité de ses peuples, la multiplicité des religions, des cultures et des civilisations qui s'y côtoient, riche aussi dans la transmission du désir de vie, unit ses citoyens dans leurs symptômes conséquents à la guerre. Une guerre où les idéaux, les espoirs et les normes morales s'effondrent. Un traumatisme qu'efface le déni et le masochisme du survivant. Une reviviscence englobant des cauchemars, une labilité émotionnelle, un manque d'affectivité et un état dépressif. C'est alors que la destruction psychique s'engage.

Si l'impact de la guerre affecte toute la population, enfant, adolescent et adulte, l'objectif de ce travail est de l'orienter vers la position féminine. Qu'en est-il du vécu de la jeune femme au sein de la guerre? La jeune fille dans sa période de pré-adolescence et adolescence fut témoin de la guerre et réceptacle de la transmission de ses parents, donc porteuse d'un fardeau

à double sens: sujet dévalorisé pendant la guerre et menacé introjectant le poids de la mort.

Le terme métamorphose (que j'ai introduit dans le titre), vient de *Metamorphosis* mot latin qui dérive du grec et qui veut dire *transformation*. La métamorphose dont je parle ici est symbolique et psychologique. En effet, certaines jeunes adolescentes pour s'intégrer à la société libanaise dans les conditions extrêmes de guerre à l'époque des années 80, dans un effort pour survivre dans une société masculinisée à outrance, - l'homme étant le «défenseur, le guerrier le milicien» -, se *métamorphosaient*. Soit qu'elles se masculinisaient et tentaient de devenir miliciennes à leur tour voulant faire «l'homme»; soit alors qu'elles rentraient dans les affres de la peur, se tassaient dans l'ombre et s'inhibaient.

J'illustrerai mon étude en proposant un exemple clinique d'une femme que j'ai suivie en psychothérapie, en 2004 pour une durée de 4 ans. Elle illustre le vécu douloureux d'une adolescente durant la guerre libanaise des années 80, repliée sur elle-même, souffrant d'inhibition et admirant par contraste ses voisines miliciennes. Qu'elle soit milicienne ou oubliée à la maison, la femme a pâti de la guerre, oubliant parfois ce qu'être femme signifiait.

L'être humain naît dans une famille qui lui transmet un héritage conscient et inconscient comprenant des missions, des loyautés familiales visibles ou invisibles, des loyautés claniques, culturelles, religieuses, nationales(1). Les enfants de guerre sont victimes d'un vécu qui comporte à partir de guerres successives, des traces qui se gravent dans leurs pensées et infligent des blessures narcissiques. Une empreinte se produit ainsi, très précocement, et se métamorphose en mémoire perpétuelle et corporelle.

La guerre pénètre le noyau familial et affecte la fonction de chaque membre du noyau. Les enfants soumis au traumatisme de guerre sont sujets à un syndrome post traumatique (*PTSD*) qui affecte leur vécu social, scolaire et culturel et les marque tant dans leur corps que dans leur psyché, où se déclenchent des manifestations d'ordre psychosomatique et des troubles

(1) Schutzenberger A.-A., Secrets, secrets de famille et transmissions invisibles, dans *Cahiers critiques de thérapie familiale et de pratiques de réseaux*, 2004/2 (no 33), pp. 35 à 54.

de développement. La construction de base dans l'enfance se brise, l'appauvrissement existentiel règne.

La guerre peut se décrire comme un ravage affectant le comportement psycho-affectif de la jeunesse en particulier. La guerre fut une menace pour la jeunesse libanaise sur tous les plans, politique, social et économique. Cette jeunesse voit s'effondrer son rêve d'avenir quand le semblable dans l'humanité devient l'ennemi. Elle perçoit le monde extérieur comme terrifiant et persécuteur. Pour elle, la misère et l'obscurité prédominent dans le tunnel du processus des transformations adolescentes.

La guerre annihile les lois du pays, impactant toute loi propre à chaque famille. La guerre peut priver le père de sa fonction paternelle, et le place dans une position de démissionnaire, au chômage ou bien engagé sur le champ de la guerre. Cette remise en question du père déclenche la déstabilisation du foyer familial et sa perte. Même dans les cas où la mère se trouve obligée d'être le substitut paternel, la fonction du père en tant que possesseur du phallus et représentant de la loi est perdue. Il arrive même parfois dans ces cas que la mère perd tout repère de sa fonction maternelle, tels l'amour, la tendresse, sombrant dans une anxiété nocive pour elle et pour sa famille.

La mère peut se sentir prisonnière face à une civilisation de survie. Elle peut transmettre à l'enfant ses propres peurs. Traumatisme introjecté par l'enfant qui se déplace durant son développement, et s'exprime en des symptômes qui se métamorphosent, prenant diverses faces et diverses couleurs à chaque stade de son âge. Adulte, il devient une plaque sensible sur laquelle s'inscrit la marque de la mémoire familiale refoulée et où la remémoration prend place.

Ainsi la fillette pré et adolescente dont la mère est angoissée, reçoit outre ses propres angoisses de survie face à la guerre, un sentiment d'insécurité et les angoisses de mort de sa mère dont elle capte la souffrance à travers un filtrage de son comportement. Ces affects agissants dans un secret de transmission s'inscrivent sur le corps de la fillette sous forme de divers symptômes tels l'inhibition, les cauchemars, la frigidité, la persécution, l'anorexie, la boulimie. Selon Lacan, le symptôme de l'enfant se trouve

en place de répondre à ce qu'il y a de symptomatique dans la structure familiale[2].

Que se passe-t-il dans de telles familles pour une adolescente? Comment réagit la fillette à ces problématiques de guerre?

F. Dolto évoque le complexe du homard qui se réfère à la période de vulnérabilité chez l'adolescent afin de trouver de nouveaux repères, c'est une période de métamorphose pour se faire une nouvelle peau personnelle. De quelle métamorphose s'agit-il quand le chaos de la guerre envahit un pays, et brise le noyau familial et en particulier le couple parental, et déstabilise la transition de l'adolescence?

Sur le terrain où se joue la guerre, certaines jeunes filles se trouvent introduites dans son champ; d'autres sont inhibées, clouées dans les abris, silencieuses, mutiques, avalant toute expression psychique personnelle; certaines se trouvent bloquées dans les internats, loin de la famille[3], etc.

Toute la problématique du *vécu-guerre* se connecte au sens que l'adolescente, relativement à son développement et à son histoire, donne aux événements vécus. L'adolescente a besoin de son père, représentant de la protection et de la loi, et de sa mère, symbolisant le savoir être femme, afin de traverser le passage de l'enfance à l'âge adulte. C'est l'autre imprégné dans notre mémoire qui donne sens aux choses, dynamise nos rêves et change la connotation affective du réel qu'on perçoit[4].

Dans le *vécu-guerre*, l'adolescente se perçoit vivre un arrachement et une rupture brutale de sa vie quotidienne, ce qui peut la mener à un effondrement psychique.

Cette femme, disons Lara, raconte en thérapie durant des mois, son adolescence plongée dans des scènes affreuses qui l'ont accompagnée tout au long de son développement sous formes de pulsions d'agitation perpétuelles.

Les nuits de son enfance et de son adolescence (7 à 11 ans), elle dort sur un matelas à côté de sa mère et de son frère, dans le couloir de leur

(2) Cf. Lacan J., «Note sur l'enfant», dans *Autres écrits*, Paris, éd. Du Seuil, 2001.

(3) Konrand Lorenz parle des oies cendrées, que l'oisillon prend pour mère ce qui bouge devant lui quand il éclot de son œuf; de même, le nourrisson humain s'attache à qui le nourrit et s'occupe de lui lorsqu'il sort du sein de sa mère: il y a empreinte «corpo-ki-nésique-visuelle» et «ancrage» [Lorenz K., *Les oies cendrées*, Paris, Albin Michel, 1989, p. 45].

(4) Cyrulnik B., *Quand un enfant se donne la mort*, Paris, Odile Jacob, 2011. p. 22.

maison. Elle s'endort les yeux écarquillés, elle «anesthésie» sa respiration, suit le sifflement de l'obus, se perçoit mutilée jusqu'à l'éclatement de l'obus dans la cour voisine. Elle est dans l'attente de la mort non seulement pour elle-même mais pour son père qui se trouve sur le champ de bataille. Que ferait-elle sans père? Elle se réveille en pleine nuit, criant, pleurant, se jetant par terre.

Son somnambulisme est la traduction des scènes affreuses et indicibles qui la transforment en une adolescente différente, bizarre. Le concept de mort la tourmente et la suit partout tout au long de son développement. La réalité d'un bruit jusqu'aujourd'hui la fait sursauter. Elle se retrouve au quotidien tiraillée entre la survie, la lutte contre la mort et la résilience face à la guerre.

Mais le savoir qui manque à notre adolescente est encore plus fort. *Qu'est-ce qu'être femme* se demande-t-elle? *Quel homme lui plaira-t-il assez pour en faire un mari*?

Dans son adolescence (vers 13 ans), l'image des miliciens la passionne, ils symbolisent tout le pouvoir et la virilité pour elle, particulièrement dotés de leurs missiles; elle est à la recherche de son père absent de son foyer, et de ses outils phalliques. S'identifiant à son père, elle est attirée par l'idée d'être milicienne.

Une fille peut-elle être milicienne? Pour répondre à sa question, notre adolescente observait, fascinée, ses voisines un peu plus âgées, qui vivaient d'abord dans un internat avant de devenir combattantes. Ces adolescentes étaient issues d'une famille dysfonctionnelle: un père qui ne paraissait pas en mesure d'assurer ses devoirs, alcoolique, violent avec la mère et une mère victime. Ces voisines étaient au départ fières d'être devenues des adolescentes-miliciennes. Elles ont abandonné leur parcours académique afin de fréquenter les casernes; mais en fait elles s'étaient réfugiées dans les guerres. Leur désir effectif était de fuir le foyer familial où la violence et l'agressivité du père et la faiblesse de la mère régnaient. Elles grandissaient sans avoir p. s'engager dans un métier convenable, et même le choix du mariage futur se solda par un échec.

Beaucoup de ces jeunes miliciennes, quand elles sont issues d'un milieu dysfonctionnel, refusent d'avoir des enfants. Cette abstinence de la maternité

traduit-elle leur effroi de faire revivre à leurs enfants le même vécu que le leur ou est-ce une vengeance à l'égard de la filiation, leur père s'étant désinscrit de sa propre filiation?

Quoiqu'il en soit, les récits des voisines adolescentes-miliciennes tournèrent plus tard autour de leur regret d'un passé douloureux, un combiné de peurs et de souffrances. Leurs rêves étaient chargés de brume et de morts et elles sentaient bloqué leur chemin vers l'avenir, tant elles se vivaient alourdies d'un double fardeau: le vécu de la guerre et le vécu de leur famille dissociée. La culpabilité, leur enfance perdue, leur identité de guerrières, les ont menées à trouver refuge dans la prière.

Déjeté de sa famille, enfant nous le voyons souvent mal accueilli, «l'adolescent-soldat se retrouve dans une relation de spécularité avec l'ancestralité, qu'il subjective comme une puissance de vengeance et de destruction»(5).. Que serait-ce donc quand il s'agit d'une adolescente-soldate?

Au fur et à mesure, l'image des miliciens commence à disparaître chez notre adolescente et avec elle l'idée de combattre (16 ans). Les pertes et les morts innombrables au combat prennent leur place, et le concept de mort recommence à la bouleverser et amplifie sa détresse. Elle rentre dans une isolation, dans un mutisme, et dans une répétition qui s'achève en un cercle vicieux: *quel sens le signifiant guerre a-t-il?*

Arrivée là notre adolescente pense à se donner la mort. Se suicider c'est aller au-devant de cette mort qui lui fait peur.

Que dit-on de l'adolescente qui se donne la mort? Est-ce une autodestruction féminine? Quand la souffrance n'a pas de sens, quand le désengagement familial ou culturel appauvrit l'environnement affectif au point d'en faire une sorte d'isolement sensoriel, l'idée de se donner la mort est là, et elle vient plus facilement aux filles qu'aux garçons(6). Les filles s'avancent dans leur maturité précocement mais restent accablées dans leur dépendance sociale. Leur expression reste soumise à leur sentiment d'injustice et de répression.

(5) Douville O., «Enfants et adolescents sous la guerre et rapport à l'ancestralité», Dans *Journal des anthropologues* 2009/1-2, No 116-117, p. 231 à 259

(6) Cyrulnik B., *Quand un enfant se donne la mort*, Paris, Odile Jacob, 2011, p. 24.

De jeunes adolescentes se donnent parfois la mort comme une vengeance pour pouvoir culpabiliser la personne cause de ce geste. C'est alors un acte narcissique, comme si le Moi qui prend une telle décision traduit un acte contre l'autre. Les mass médias avaient diffusé l'histoire d'une de ces adolescentes. Après avoir exposé sa nudité en photos via WhatsApp, elle s'est tuée.

Tel n'est pas le cas de notre adolescente. Pourquoi mourir alors? Elle ne le sait pas. Fera-t-elle le geste final? Elle n'y est pas parvenue. Elle grandit comme elle peut. Le signifiant mort l'obsède et la poursuit jour et nuit.

Devenue adulte, elle refuse comme ces anciennes voisines d'avoir des enfants. Elle en a peur. *Pourquoi faire?* dit-elle. Pourtant, elle pense que la femme appartient au registre de l'amour vécu dans la maternité; femme et mère se confondent pour elle. La femme qui n'enfante pas, et qui à cause de cette incapacité ne se sent pas pleinement femme, offre l'appellation de «femme» à sa mère, étant dans l'incapacité de se définir par le signifiant «femme»(7). La femme est sa mère; quant à elle, elle est restée cette fillette apeurée par l'obus qui n'arrivait pas à fermer les yeux pour dormir.

En somme, la guerre est un combat du peuple, mais ses traces subsistent sur les pré-adolescentes et les adolescentes, et déterminent leur corps, leurs symptômes, leur vécu, leur avenir. Des adolescentes hyperactives, passives, inhibées, toxicomanes, délinquantes, dépressives, fusionnelles, suicidaires. Tous ces troubles sont autant de réponses à leur souffrance inédite durant la guerre.

La fille de tout âge a un besoin de vivre dans son nid familial, où l'amour, la contenance, la communication, l'expression sont les facteurs nécessaires à un développement affectif sain. Elle attend de sa mère de lui procurer un savoir sur la féminité, et de son père l'introjection de la loi fondamentale. Ajoutons que sa vie sociale s'enrichit avec ses semblables: fratrie, pairs, amis.

La jeune fille pré-et adolescente qui perd toute référence environnementale, intra et extra familiale, et qui se trouve incapable de mettre des mots à ses inquiétudes ou à ses anxiétés, perd le sens d'elle-même.

(7) Lacan J., «La direction de la cure», *Écrits*, Paris, Seuil, 2001, 591

Dans de telles conditions précaires de guerre et de peur, même s'il en restera toujours quelque chose, l'issue est que les représentations de souffrance se disent, mettant un sens au symptôme. «Une vie remplie d'échanges avec les autres, dit Françoise Dolto, puisque ce sont les échanges qui font que la vie a du sens. Sinon notre vie n'aurait aucun sens, si ce ne sont pas les autres qui nous donnent preuve que nous sommes vivants en nous aimant, et nous qui nous donnons preuve que nous sommes vivants en aimant les autres, et en ayant des échanges avec eux… tout ce qui est échange et rebondissement de vie, en communiquant avec les autres, ses sentiments, ses angoisses, ses joies, ses peines, et en partageant avec les autres tout ce qu'il a comme fantasmes autour de cet inconnu. Il n'y a pas que la mort qui soit inconnue, tellement d'autres choses nous sont inconnues»[8].

(8) Dolto F., *Parler de la mort*, Paris, Ed. Gallimard, 1998, pp. 35.

هويّة اليافعات في أثناء الصراع: تجربتي الشخصيّة ككويتيّة فلسطينيّة

تغريد القدسي - غبرا

عند البدء بسردي هذا يجب أن أذكر ما مرّت به ابنتاي وهُما بعمر الزهور في أثناء احتلال العراق للكويت في العام 1990، والذي رَسَمَ مَلامح شخصيّتهما ذات الهويّة المُختلَطة والمُركَّبة، وكيف يُمكن أن تتذبذب تجليّاتها في الظروف المُختلفة. جَعَلَني ذلك أركِّز أوّلاً على أنّهما كويتيّتا الجنسيّة من أصولٍ فلسطينيّة. فكويتيّتي أنا تَنبع مِن أنّني تربَّيْت في الكويت ولم أعرف وطناً «كحقيقة» غيرها ولكنّي عشتُ الوطن فلسطين «كذاكرة» من خلال تجربة أمّي وأبي. ولا بدّ من أن أذكر أيضاً أنّ الكويت بلد كالفسيفساء قلّما نجد عائلة ليس لها جذور هنا أو هناك في المناطق المُحيطة بها جغرافيّاً؛ إلّا أنّ الكويت وَعَتْ حجْمَها وموقعها مبكراً ما رَسَمَ مَعالِم تصرّفها وشكَّل سياستها الخارجيّة. هي الدولة الفتيّة التي تُحافظ على بقائها بالتزام الحياد، وبخاصّة بين الدول الثلاث الكبيرة المُحيطة بها تاريخيّاً وجغرافيّاً وهي العراق، السعوديّة، وإيران.

سأخطّ أفكاري وتجربتي الشخصيّة كسيّدة كويتيّة فلسطينيّة. ربَّيتُ ابنتَيَّ بشكلٍ عامّ على الإحساس بالفخر بحقيقتهما وعلى أنّ هويّتهما المُختلَطة تتأتّى من الكويت وفلسطين. جاء الصراع والتهديد في أثناء احتلال العراق للكويت

في العام 1990 فأصبحنا في حيِّز الخَطَر لأنّ الاحتلال هدَّد سلامتهما. كتبتُ بتفصيلٍ عن موضوع الهويّة والفخر بها عندما تتعرّض للانتهاك والتهديد في أثناء الصراع في سيرتي التي نُشرت في بيروت بعنوان «عندما يكون امتلاك العقل عبئاً» (شباط/فبراير 2021). لطالما شكَّل موضوع الهويّة المُختلَطة أو المُركّبة خصوصاً، هاجساً، جَعَلَني أركِّز عليه وعلى الفخر بالعروبة أوّلاً، ثمّ على الإحساس بعُمق الهويّة وغِناها عندما تكون مُختلَطة أو مركَّبة؛ وفي حالتنا هنا هويّة عربيّة بُعمقَيْن واضحَيْن هُما الكويتيّ والفلسطينيّ. فالهويّة هنا هويّة عربيّة تحمل في ذاتها شقَّيْن، بلا أيّ تضارُبٍ بينهما. إنّها وكما أراها علاقةَ تكامُلٍ وليس تنافُرٍ من الجدير التأكيد عليه. السؤال يصبح هل للصراع السياسيّ أثرٌ على ذلك؟ كيف يُمكن أن يؤثِّر العنفُ فيها وهل يُمكن للهويّة أن تخبو أو تتجلّى بأشكالٍ أخرى نتيجة الصراع؟ وهل لرأي الأغلبيّة مِن وزنٍ هنا؟

شاء القدرُ أن تنتقلَ عائلتي الفلسطينيّة إلى الكويت أوائل الستّينيّات من القرن الماضي. ترعرعتُ في الكويت وارتدتُ مَدارِسَها في عهد التعليم الذهبيّ. وعندما التحقتُ بجامعة الكويت وتعرَّفتُ إلى زوجي الكويتيّ الجنسيّة من أصولٍ فلسطينيّة، والذي كان مُقاتِلاً يُدافع عن الهويّة الفلسطينيّة، أصبحتُ كويتيّة الجنسيّة قانوناً، بحُكم الزواج، وأصبح أبنائي كويتيّين من أبٍ كويتيّ بحُكم الولادة. للاختصار فإنّ أبنائي بعامّة عاشوا كويتيّين وفلسطينيّين. لطالما ردَّدتُ عليهم أنّ الفلسطينيّ والكويتيّ عربٌ أوّلاً وأخيراً، ما يَخلق تلاقياً وليس تنافُراً بينهما. هاتان الهويّتان العربيّتان شكّلتا الهويّة المُختلَطة لأبنائي. اللّغة واحدة وإنْ اختلفتِ اللّهجات، التاريخ واحد يخضع لحقيقة أنّه بعد انهيار الدولة العثمانيّة، وُضعِت الكويت تحت الانتداب البريطانيّ وفلسطين كذلك مع فارق أنّ فلسطين أُعطِيَت لليهود بحسب «وعد بلفور» المشؤوم. الهويّة الفلسطينيّة التي حاول المشروعُ الصهيونيُّ مَسْحَها، والتي رزحت تحت الاحتلال الإسرائيليّ وقيام دولة الاحتلال بنكبة العام 1948 ثمّ بنكسة العام 1967. هذه الهويّة المعنَّفة والمهدَّدة ترعرعتْ في الكويت وعبَّرت عن نفسها بطُرقٍ عديدة. الاستقرار والإحساس بالأمان جَعَل ابنتَيّ تعيشان هذه الهويّة الفلسطينيّة التي حرصت الكويت من بدايتها على احتضانها. أقاربنا ومعارفنا بحُكم النسب والعشرة هُم على الجانبَيْن الفلسطينيّ والكويتيّ.

في العام 1990 وعندما أحسّ الكويتيّون بظُلم الاحتلال، عشْنا أنا وابنتاي اليافعتان معنى الهويّة الفلسطينيّة المسلوبة مرّةً أخرى، لكنْ ليس من الذاكرة هذه المرّة ولكنْ من الحقيقة والواقع. كأنّ كويتيّتنا طَفَتْ على السطح وبانَتْ للعيان، فهي احتاجت إلى أن تُعبِّر عن نفسها وتؤكِّدها. الظرف تطلّبَ أن تكون الهويّة المعنَّفة والمهدَّدة هنا بحاجة إلى الحماية. لقد عِشنا وقتَنا نؤكِّد على عدم اختلاف الهويّتَيْن الكويتيّة والفلسطينيّة أو تنافرهما. ولكنّ التذبذب هنا كان واضحاً، فتارة نُؤكِّد هويّتنا الفلسطينيّة وتارة الكويتيّة، وذلك بحسب وضْع السلامة والأمن في وقتها والأجواء السياسيّة المُحيطة والتهديد الذي يجلبه التأكيد على كلٍّ منهما.

في العام 1990، في أثناء احتلال العراق للكويت، كانت ابنتاي يافعَتَيْن في مُقتبل العمر، ابنتي الكبيرة في العاشرة من عمرها والصغيرة في الرّابعة. كنتُ واضحةً في زرْعِ هذا الفخر بهويّتهما المُركَّبة واعتبارها إغناءً لهما وليس انتقاصاً. فعلتُ ذلك في أثناء ترعرعهما بإيعازٍ من ضميري وقناعاتي التي أعتبرها «متفتِّحة وليبراليّة». وفي الكويت بَرزتْ وتعمّقت خاصيّة غنى الهويّة عندما تكون مُختلطة أو مركَّبة والحاجة إليها من أجل الصحّة النفسيّة للفرد كي لا يتعرّض لأيّ شكلٍ من أشكال التنمُّر أو الاضطهاد أو الابتزاز بشأن خلفيّته المُغايرة للأغلبيّة. في أثناء احتلال الكويت بَرزت الحاجة إلى التركيز على أمن ابنتيَّ وسلامتهما وعدم الحديث أو التركيز حتّى على ذِكر الهويّة الكويتيّة، فجأة تجدنا نريد أن نخفِيَ الشقّ المهدَّد، الكويتيّ، وذلك إلى أن نُصبح خارج الخطر. الكويت التي أضحت عراقاً بعد احتلال العراق لها وضمِّها له في العام 1990. همّي في أثناء احتلال الكويت أصبح سلامتهما نتيجة صِغر سنّهما. كان الهمّ أن أخرج معهما إلى العالَم الخارجيّ، خارج الكويت التي أضحت العراق، حيث لا يُمكن لأحدٍ أن يُهدِّدهما لأنّهما تمتلكان الجانب الكويتيّ على الرّغم مِن وجود الإطار العربيّ. ولكنّ الإطارَ العربيّ كان مُشرذَماً حينها والرؤية غير واضحة. لم أحفل آنذاك للآثار النفسيّة التي قد تؤثِّر فيهما، فهمّي كان سلامتهما الجسديّة الملموسة، أمّا السلامة النفسيّة، فأستطيع التعامُل معها في ما بعد. ولذا طلبتُ منهما عندما علقْنا قسراً في بغداد مع ما يُسمّى «الدّروع البشريّة» أن تتصرّفا كفلسطينيّات لحمايتهما. لم أشكّ أنّ كونهما كويتيّتَين يُمكن أن يقوِّض فرصتنا للخروج خارج نطاق الخطر، أي خارج العراق. لا بدّ من ذكر أنّنا كنّا بصدد الخروج مع

الرعايا الأميركيّين إلى أميركا، أنا وابنتاي، لأنّ الصغيرة تُعتبر أميركيّة المَولد. ولكنّ الشكّ بنا قوَّض هذه الفرصة فبقينا في بغداد لأسبوعَين نُحاول إثبات أنّنا أيّ شيء إلّا كويتيّات! كيف أثّر ذلك على المدى البعيد؟ أنا أؤكِّد أنّ لذلك بصماتٍ وآثاراً بعيدة المدى.

لنأخذ مثالاً على ذلك، عندما حاولنا الخروج من بغداد إلى العالَم الأوسع طالبين الأمان في سياق ترحيل الرعايا الأميركيّين، لم يكُن مُمكناً لابنتَيّ الصغيرتَيْن اللّتَيْن لا يُمكنهما فهْم الأمور بدقائقها وتعقيداتها، أن تستوعبا عدم قدرة بقيّة أفراد الأسرة على أن ينضمّوا لنا أو يخرجوا معنا. برزت الحاجة إلى التركيز على أنّنا فلسطينيّون ولا صلة لنا بالجانب الكويتيّ تفادياً للتهديد والتعنيف عندما علقنا في بغداد مع ما يُسمّى «الدروع البشريّة». من المهمّ عدم إغفال أنّنا ككويتيّين أضحينا عراقيّين، وأنّه بات من غير المسموح لنا مغادرة العراق، وكان علينا أن نؤكِّد بالتالي أنّنا فلسطينيّون ولسنا كويتيّين.

بعد تحرير الكويت في العام 1991استمرّت المُعاناة بشكلٍ أخر يتعلّق بالشقّ الفلسطينيّ من هويّتنا ومُحاولة عدم إبرازه بل حتّى محاولة إخفائه مرّة أخرى من جانب فلسطينيّين كُثر أو مَن هُم من أصول فلسطينيّة. الأمان والسلامة حدّدتا ذلك على الرّغم مِن أنّي كنتُ أركِّز على حقيقة أنّنا لم نفعل إلّا ما نفخر به وهو نابع من قناعتنا بعدم وجود أيّ تضارب بين الهويّة الكويتيّة والفلسطينيّة، على الرّغم مِن أنّ الوضع السياسيّ خلَقَ تجاذباتٍ محدَّدة لم تكُن في الحسبان على أرض الواقع. فالجانب الفلسطينيّ الذي اكتوى بنار السياسة الغربيّة كان ضدّ التحالف. أمّا الكويتيّ الذي كان يريد تحرير الكويت، فكان مستعدّاً للتحالُف حتّى لو مع الشيطان لتحرير الكويت.

ابنتي الكبيرة تُخبرني بعد سنينٍ عديدة أنّها كانت تُخفي حقيقة أنّها كويتيّة من أصولٍ فلسطينيّة حتّى لا تتعرّض لأيّ شكلٍ من أشكال التنمُّر أو الابتزاز. أخبرتني مرّة عن صديقتها الفخورة بأصولها الإيرانيّة والمُغايِرة لأصولنا الفلسطينيّة، وكيف حاولَت أن تُفهمها أنّنا جميعنا، نحن وهي، لا علاقة لنا بما يحدث. وفي أثناء حرب الخليج الأولى، ولأنّ العراق وإيران كانتا مُتحاربتَيْن، لم يكُن من المُمكن لها التعبير عن هويّتها على الرّغم من صِغَر سِنّها. ما الأثر النفسيّ الذي يخلقه هذا التذبذب في الوضع السياسيّ الذي يفرض على المرء، وخصوصاً اليافع، التأكيد على ولائه إلى أيٍّ كان، من أجل حماية نفسه أوّلاً ثمّ مكتسباته؟ ما الأثر الذي يُخلِّفه ذلك نفسيّاً وسلوكيّاً على المدى البعيد؟

واليوم ونحن نُراقِب ونعيش ثورة حَيّ الشيخ جرّاح في القدس التي ما هي إلّا تعبير آخر عن الهويّة واضطهادها، تجدُنا نحسّ بأهميّة ما تمّ زرعه بابنتَيّ عندما كانتا تكبران. لقد تَرعرعتا في أجواءٍ وطنيّة عروبيّة وأحسَّتا بفلسطينيّتهما كما بكويتيّتهما. أمدَّهُما ذلك بالأمان والقوّة والإحساس بحريّة التعبير عن إنسانيّتهما والانطلاق للفضاء الخارجيّ العالَميّ. أعتقد أنّ التربية والتعليم المُنفتِح بدأ يؤتي ثماره. لذا لا بدّ من إثارة أسئلة عدّة قد توضح موضوع الهويّة والصراع مع اليافعة كما مع البالغين.

إنّ احتلال العراق للكويت في العام 1990 خَلَقَ حالةً من البَلْبَلة والضبابيّة الفكريّة بشأن الولاءات. اختلطتِ الأمور على الجميع، فالاحتلالُ عربيّ وقائمٌ من طَرَفِ جارٍ، ومَن رزح تحت الاحتلال وعانى منه هو عربيّ وجار كذلك. كيف كان مُمكناً استيعاب دقائق الأمور، وبخاصّة التفاصيل الصغيرة التي تحدِّد الهويّة؟ كيف لنا أن نستوعب خيانة الأخ والجار؟ كيف لليافعات أن يستوعبْنَ قضايا الهويّة المهدَّدة، وخصوصاً تلك التي بدت معقَّدة جدّاً لأنّ مكوّناتها ـ وكما تبدّى لنا واقعاً ـ تأخذ سنواتٍ عديدة لتتشكّل وتختمر وتُعبِّر عن نفسها؟ هذا ما حدث وما أَحْسَسْنا به في هذه الفترة من تاريخ عالَمنا العربيّ. كانت مُعاناة أقاربنا من الجانبَيْن الفلسطينيّ والكويتيّ عميقة. كنّا فلسطينيّين وكويتيّين في آن، وقد وَعينا منذ البداية أهميّة أنّ تكون كلٌّ من الهويّتَيْن داعمةً للأخرى، وأن يكون ذلك جزءًا من تربية ابنتَيّ على الرّغم مِن التهديد والتعنيف وصعوبة الوضع في أثناء الاحتلال العراقيّ للكويت الذي استمرّ إلى ما بعد تحرير الكويت على يد التحالُف الذي ضمّ عَرَباً وغربيّين.

في العام 2021 وبعد مرور ثلاثين عاماً على تحرير الكويت (1991) ولأنّ ابنتَيّ تربّتا في أجواءٍ تُؤكِّد على هويّتيهما الكويتيّة والفلسطينيّة عندما كانتا صغيرتَيْن، انخرطتا في الشؤون الكويتيّة والفلسطينيّة كلّها. بدأت قضايا هويّة ابنتَيّ الفلسطينيَّتَي الأصل، والتي كنّا نعتقد أنّها خَبَتْ، تطفو على السطح من جديد. هل كان ذلك محض صدفة؟ المَولِد، والانتماء، والعائلة.. كلّ هذه الأمور جعلتهما تعيشان الجانبَيْن. إحساسهنّ بفلسطينيّتهنّ بدا للعيان بمنتهى الوضوح، بخاصّة عندما تفاقمت مشكلة حيّ الشيخ جرّاح في القدس المحتلّة. هكذا وَجدَت ابنتَاي تعبيراً جديداً لكلِّ أشكال المقاومة من تظاهرات، احتجاجات، مسيرات ومِن استخدامٍ كاملٍ لكلِّ وسائل التواصل الاجتماعيّ التي قامتا

بتوظيفها للدفاع عن هذه الهويّة المُستباحة. هذه الوصفة التي تمّ تكوينها وجبْلها عندما كانتا صغيرتَيْن تبدّت بعد سنين عديدة. أي إنّ ما زُرع فيهما كيافعتَيْن عبَّرَ عن نفسه أمام التهديد وعندما سنحتِ الفرصة! عندما تعرّضت الهويّة للهجوم. والسؤال هل لهذا التذبذب في إبراز الهويّة عندما تتعرّض للعنف من أثرٍ في نفسيّة المُعنَّف؟

إنّ التماثُل والصراع من أجل التماهي مع هويّة الأغلبيّة فاعل جدّاً في هذا السرد وعلى أرض الواقع. هل نشعر بعدم التوازن أو الإحساس بعقدة تجاه الأغلبيّة العظمى التي تتمتّع بالأحقِّيَّة؟ هل إنّ حقيقة «استبداد الأغلبيّة» فاعلة هنا؟ ما دَور الفعل في المُتوارَث؟ ما دَور الثقافة والتعليم في المُتوارَث؟ ما دَور الديمقراطيّة السياسيّة والقدرة على التعبير عن الذات؟ كلّها أسئلة ومعضلات مشروعة ومطروحة أمام هذا الجيل لأنّها تعبِّر عنه وعن قضاياه التي لا تزال في طور التشكُّل والفَهْم.

يُمكن الرجوع إلى تفاصيل تجربتي الشخصيّة كسيِّدة كويتيّة فلسطينيّة، وبالتحديد تجربتي مع ابنتَيّ في أثناء الاحتلال العراقيّ للكويت في العام 1990، المنشورة بالتفصيل عندما كانتا في مُقتبل العمر.

«Two Months Under Iraqi Occupation: A personal Account». *Digest of Middle East Studies DOMES* (Winter 1993) Vol. 2, No.1, 29-39.

حين صارت نساء عَدَن خيامًا سوداء تتحرّك

هدى العطّاس

كدّسَنَا الخوف في غرفةٍ في منزلنا في عدن: 14 فتاة، كبيرتنا في الرابعة والعشرين والصغرى في الثامنة. يصمُّ آذانَنا صريرُ عجلات الدبّابات في صيف العام 1994 اللّاهب بنيران الحرب التي شنّها النظام في اليمن الشماليّ، متلفِّعًا بالحفاظ على ما يُسمّى «وحدة اليمن» التي أُعلنت في العام 1990.

كانت جحافل قوّاتهم تجتاح مدينتَيْ عدن. وغوغاء أصوات الجند المُقتحمين في زهو انتصارهم، تنهش أذني الصغيرة آنذاك، وهُم ينهبون المدينة ويُروِّعون سكّانها.

كنتُ وثلّة من فتيات على مشارف الأنوثة، ومن نازحاتٍ هربًا من الحرب. كانت الغرفة التي تكوّمنا فيها شبه آمنة من نيران القذائف. لكنّ فرائصنا ترتعد خوفًا من ذاك المجهول القادم إلينا على شكلِ فتوى أصدرها شيوخ الدّين لنظام علي عبد الله صالح، وقضت بجواز «سبي نساء الجنوب وقتْلِ رجالهم ونهْب أموالهم» باعتبارهم ـ أي سكّان جنوب اليمن، في نظر نظام الشمال وقبائله وشيوخ دينه وجنرالات جيوشه ـ شيوعيّين مَلاحِدة، ويجوز قتلهم وأسرهم وسبي نسائهم، بحسب الفتوى المذكورة.

أذكر ـ كأنّني لا أزال أعيش اللّحظة تلك ـ خوفنا، رعبنا، هلعنا، فيما نفكِّر في منجىً من المصير المرعب الزاحف إلينا من على بُعدِ خطوات: أنختبِئ في خزائن الملابس؟ تحت الأسرّة؟ أم تحمل كلٌّ منّا سكّينًا تخبِّئه في صدرها لمُواجَهة الغاصبين؟ جنود «الشرعيّة اليمنيّة الوحدويّة»، كما سمّوا أنفسهم آنذاك.

لعلّ مَن دَخَلَ الغرفة التي كنّا مكدّسات فيها تنبَّه لأنفاسنا المكتومة هَلَعاً، فيما عيوننا شاخصة إلى شاشة التلفزيون نُتابع نذيرَ الهزيمة الوشيكة لما يُسمّى «الجيش الجنوبيّ»، وزحفَ «قوّات الشمال»، قوّات تثبيت الوحدة بالدمّ. كانوا خليطاً من جيشٍ نظاميّ وحشود قبليّة مسلَّحة وجماعات مليشياويّة جهاديّة عادت من أفغانستان. وها هُم يدخلون مدينتنا بمُحاذاة بحر العرب، بعدما أثخنوها بقذائف «الكاتيوشا» التي لم يتوقّف تساقطها الكثيف عليها طوال شهرَين من الحرب، وخلّفت حفرًا هائلة في جسدها، وجَعلتْ منازلها وكثرة من أحيائها ركامًا.

***

صبيّةً كنتُ، الكبرى بين إخوتي. وها نحن محاصرون بحمحمة موت وشيك، نتشبّث نحن الأخوة الخمسة بعنق أمّنا كلّما روَّعتنا أصوات القذائف والانفجارات. وهذا ما حدث عندما انفجر صاروخ في حيٍّ قريب، فارتجّت نوافذ منزلنا. وذلك المشهد الذي بثّه التلفزيون غارَ عميقاً في ذاكرتي: نسوة معفّرات بالتراب يصرخنَ، يضربنَ وجوههنّ بأيديهنّ. وجَمْعٌ غفيرٌ يلملم أشلاءً بشريّة متناثرة. كنتُ هلعة، مشدوهة وحزينة، فيما أتابع الكاميرا تقترب من وجه شيخ متعظم بارز الأخاديد، منكَّس الرأس، يلطم صدره منتحبًا بناته الشابّات اللّواتي قضيْنَ دفعة واحدة. رأيت أجسادهنّ مطروحةً أرضًا، مدماة، حاسرة أثوابهنّ عن بعض أجزائها الملطَّخ بياضها بالدم.

وأشدّ ما أوجعني وأثار شهيق عبراتي مشهد المرأة التي تبكي عنزاتها السبع، وصور جثامين الشياه، وخليط دم بشريّ وحيوانيّ يرسم خطوطًا ولطخًا على الأرض.

وفي تلك اللّيلة نمنا جميعًا في سرير والدتنا، أكفّنا قابضة على معصمَيها وبأقدامها ورؤوسنا على بطنها. صبايا أربع صغيرات وولد وأمّهم على سرير واحد. وفي الصباح طَرقت باب منزلنا عائلاتٌ خمس من الأصدقاء والمعارف، نازحين إلى منطقتنا من مناطق اشتدّت فيها المعارك.

***

لم يكُن الخوف من السبي والاغتصاب وحده ما يُهدِّدنا ويُخيفنا. كان العطش يتهدَّدنا في أيّام عديدة، والظلام يجعلنا أشباحاً خائفات من الأشباح المتخيّلة أو غير المرئيّة، بعدما قُطعت المياه والكهرباء عن عَدَن.

وكنّا بناتٍ وصبيّاً صغيراً وامرأة، لا رجل معنا أو شاب يذهب مع الرجال لجلْب الماء من بئرٍ ليست بالقريبة. جيران أمدّونا ببعض قناني ماء عذب للشرب وطبخ ما تيسّر في البيت. لكنْ للغسيل والاغتسال، كان علينا، أختي التي تليني وأنا في النهار، ملء غالونات من ماء البحر القريب، وحمْلها إلى البيت مرتعبات.

ونفد الماء العذب يوماً من بيتنا، فطبخت أمّي المعكرونة بماء البحر. وما زلتُ أذكر صعقة الملح على لساني والتهاب شفتي. وأختي الأصغر الطفلة لم تستطع أكْل المعكرونة، فأخذت تبكي فأسكتت أمّي جوعها ببعض التمر.

حدث ذلك قبل نزوحِ أُسرٍ خمس إلى منزلنا، وفيهم بعض فتية وأب أحد العائلات، فتوّلوا مهمّات جلب الماء، ونجونا من غائلة العطش وماء البحر.

***

وذات ليلة تجدّدت المعارك واشتدّت في منطقتنا التي كانت قريبة من جبل تقع فيه مخازن أسلحة، يبدو أنّ الجيش القادم من الشمال كان يُريد إنهاءها قبل دخوله المدينة. فقرّرت أمُّنا أن نُقيمَ في الطابق الأرضي من منزلنا ذي الطبقات الأربع. وتكوّرنا في غرفةٍ صغيرة تتوسّط الغرف، ظنًا أنّها الأكثر أماناً من القذائف.

كان ينير ليل رعبي وأخوتي وأمّنا مصباحُ الكيروسين الذي تنوص شعلته الواهنة، فتتمايل أخيلة أجسادنا على الجدار مع أزيز الانفجارات. وفي ليلةٍ أرادت أختي الخروج من الغرفة لقضاء حاجتها، فرافقتها أمّي وأنا ـ هكذا كنّا نترافق في حركتنا داخل البيت ليلاً لنتغلّب على الخوف ـ إلى دورة المياه التي تفصلها عن غرفتنا صالة بمنْوَرٍ مفتوح حتّى أعلى المنزل. حَملت أمّي الفانوس لتنير لأختي التي تركت باب الحمّام مفتوحاً. وفجأة ارتجّ منزلنا ومادت أرضه تحتنا. سقط الفانوس من يد أمّي وانطفأ. وهرعتُ وإيّاها مُسرعتَيْن إلى إخوتي الصغار النائمين في الغرفة، فيما تعالت من ظلام الحمّام الدامس صرخات أختي، قبل أن تتلمّس طريقها وسط الارتجاجات وأصوات الانفجارات المتتالية.

في الصباح اكتشفنا شظايا متفحِّمة مُتناثِرة في أرجاء صالة المَنوَر. وسمعتُ أمّي تحمد الله فيما هي تُحدِّق في الشظايا. وظلَّ الرعب يُلازم ليالينا التالية. وبعد أيّام أصفرَّ جسمُ أختي، ووَقعتْ طريحة الفراش. ويستحيل الحصول على دواء فكلّ الصيدليّات مُغلَقة والطرق يحفّها الخطر والمستشفيات مُحاطة بالجند، فطبَّبتها أمّي بخلطات أعشاب غلتها في الماء. وبعد شهر وأكثر فتح لنا طبيبٌ نعرفه عيادته. ولمّا عايَنَ أختي قرّر أنّها مصابة بيرقان الكبد بسبب الخوف. وقال إنّ مرضها متقدِّم، ولا بدّ من نقلها إلى الخارج... شفيت أختي، ولكنّها ما زالت إلى اليوم تعاني آثار ذلك المرض.

***

في بداية تمّوز/يوليو وضعت الحرب أوزارها بهزيمة الجنوبيّين. واقتحمَتْ قوّاتُ ما سُمِّي بجيش «شرعيّة الوحدة» عَدن، وتوقّفت المعارك. ثمّ استُبيحت المدينة للنهب. رأيتُ بعَين الصبيّة التي كَبرتْ في داخلي على أزيز الانفجارات والرعب، مدينتي عدن تُنهَب وتُدمَّر، ورأيتُ أهلها يخرجون من مخابئ منازلهم في الأيّام التالية، شاحبين في مدينة مهلهلة منكوبة، يتآكلهم ويتآكلني الخوف والقهر والهوان والضياع.

على شاشات التلفزة تابعنا مشاهد «جند الوحدة» مُنشغلين بالمنهوبات: يحملون المكيِّفات ومَراوِح التهوية، أواني المنازل وأثاثاتها. شاهدناهم يخلعون أبواب المنازل الطرفيّة ويحطّمونها، وكذلك نوافذ السيّارات وأبوابها لسرقتها. واقتحموا المؤسّسات الحكوميّة. كان مبنى التلفزيون والمتحف هدفهم الأهمّ. عبثوا بمحتوياتهما. سرقوا مكتبات التلفزيون الفيلميّة، المخطوطات وقطع الآثار واللّقى. ولم تنجُ الجامعة من نَهْبِهم: مُختبراتها، طاولاتها، كراسيها، ومدرّجاتها. والمَدارِس نُهبت بدَورها.

***

ومكَّن النظامُ المُنتصِر الإسلاميّين المتطرّفين من المدينة، مكافأة لهم على نصرته. رأيتهم ينتشرون على منابر مساجدها يواصلون ما جاء في فتوى إباحة الدم والتكفير ـ وراحوا يُهدِّدون بالويل والثبور مَن يُسمّونهم «المارقين الكفرة، والشيوعيّة البائدة».

حتّى أنّني في السنين اللّاحقة حين أشتدّ عود وعيي وعودي وأشتدّت مُواجهتي معهم عبر كتاباتي، سوف أسمع تهديدهم وتكفيرهم لي من على منبر المسجد القريب من منزلنا.

وكان حدسي قد استشعرَ هول التغيير وقتامة القادم إلينا، حينما بعد أشهر قليلة من انتهاء الحرب قابلتُ صديقتي التي كانت من النازحات وأسرتها إلى منزلنا. لم أعرفْها، إلّا بعدما أزاحت قليلاً النقاب عن وجهها. كان قفّازان سوداوان يُكفِّنان كفَّيها وعباءة سميكة سوداء تكفِّن جسمها حتّى قدمَيها. أصبحتْ خَيمة من سوادٍ يتحرّك.

***

كانت قد مضت أشهر على اقتحام عدن، عندما انتشرت حوادث ضرب الفتيات في الشوارع. الفتيات السافرات وجوههنّ وشعورهنّ. أَطفأوا السجائر في وجوه بعض اللّواتي لم ينصعْنَ لعسف المُتطرِّفين.

وهيْمن الرعب والحذر على النساء وأهلهنّ. رعب تُغطّيه حملة تعبئة بمحاضرات دينيّة تنشط في إلقائها مَن سُمّين «المُرشدات» الداعيات، ينسربن إلى الجلسات المنزليّة والتجمّعات النسائيّة... التي كنّ يحاولنَ استقطابي إليها، فأرفض الذهاب. ولم يدر في خلدي يومها أنّ مواجهاتي معهم ستشتدّ وتسمِّم حياتي المُقبلة، عندما تزايد إدراكي ووعيي، وامتلكتُ يراعاً للكتابة والتعبير.

وسرعان ما اختفت مظاهر الاختلاط بين الجنسَيْن في الحياة العامّة بنشاطاتها وأدوارها. وانتهى الاختلاط تماماً في الأعراس والحفلات، وشاع ما سُمِّي «العرس الإسلامي»، لتلبس العروس فيه والمدعوّات الحجابات، ومُنع الرجال من حضوره. ثمّ انتشرت أشرطة «الكاسيت» محمَّلةً بمُحاضراتِ الدُّعاة وثقافة الوعيد الأخرويّ وعذاب القبر ونار جهنّم.

ضرب الخوف والرعب عميقاً في الوعي الاجتماعيّ وفي العلاقات الاجتماعيّة، في مُجتمع وإن كان مدينيّاً، وغلّفته الأيديولوجيا الاشتراكيّة لفترة، فإنّ جذوره قبليّة مُحافِظة، ومُحاطٌ بريفٍ وقرى وكتلٍ بشريّة لم تَعرف التحديث. وهي أصبحت مَوئِلاً لجماعات الإرهاب العائدة من أفغانستان، ضمن صفقة بين الحكومة والمُجتمع الدوليّ آنذاك.

تغيَّرَ سلوكُ الأُسَر. فغَصبتْ أُسَرٌ كثيرة بناتها على ارتداء النقاب خوفاً من تعرّضهنّ لمُضايقاتٍ واعتداءات. وفي أثناء سنواتٍ قليلة انغلق الناس بشدّة، واختفت النسوة في الجلابيب السود.

حتّى وجدتني وقلّة قليلة من الفتيات نَسير في الشارع بشعرٍ مكشوف، قبل أن نُرغم جميعًا على ارتداء العباءة وتكفين شعورنا بالحجاب، درءًا للخطر الذي سنتعرّض له، إذا أصررنا على مَسلكنا المُشين في أعراف (الغُزاة) المُتطرِّفين دينيّاً. وكان ذلك اللّباس الذي سَمَحَ لي بكشف وجهي أخفّ وطأة وأهْوَن شرّاً في نظري من تلك الأكفان السوداء وطبقاتها الغليظة التي لفّت أجساد معظم النسوة في مدينة القيظ الدائم الذي يشوي الحَجَر.

الحربُ والغزو الشماليّان وما رافقهما من نهب وفتاوى دينيّة، وإطلاق سلطة الجماعات التكفيريّة في الفضاء العامّ وعسْكرته، وتنصيب عناصرها ودُعاتها حرّاس عفّةٍ وولاة على المُجتمع يحميهم النظام ويدعمهم... كلّ هذه الأحداث قوَّضت ما حقَّقته نساءُ عدن والجنوب من مُكتسباتٍ حقوقيّة، وكلّ ما بُنِي من مظاهر انفتاح وعصرنة.

***

أقلع بعض زميلاتي عن مُواصلة دراستهنّ. وزادت حالات الزواج التقليديّ، وخصوصاً بين الصغيرات. ونشط دَور الخاطبة مجدَّداً، بعدما كان قد تلاشى. وانخرطَ كثرٌ من أقراني الذكور في الجماعات التكفيريّة. وهَجَرَ بعضهم المَدارِس مُطلِقين لحاهم معتكفين في المساجد، أو التحقوا بثكنات تدريب النشىء في المعاهد الإسلاميّة التي أنشأها «حزب الإصلاح» (الإخوان المُسلمون) أكبر الأحزاب الإسلاميّة في اليمن، بدعْمٍ من النظام الحاكم.

ولَفظت الحريّات العامّة والخاصّة أنفاسها الأخيرة. وحُرِّم الاختلاط بالقوّة، وتعرّض للضرب كلُّ شاب وفتاة، رجل وامرأة، يجلسان على شاطئ دونما إظهار ورقة زواج. وإنْ أظهراها فجلستهما تُعتبر فجوراً أو انحلالاً، وخصوصاً إذا كانت الفتاة سافرة الوجه.

***

وكان إلغاء قانون الأسرة من التدابير الأولى التي أعلنتها حكومة «الوحدة». وهو قانون سُنَّ في الجنوب قبل الوحدة، في أثناء حُكم دولة «جمهوريّة اليمن الديمقراطيّة الشعبيّة». وتضمَّن منظومة متقدِّمة من القوانين التي ساوت في الحقوق بين المرأة والرجل، وسمحت بالزواج المدنيّ، وبحقّ المرأة في تزويج نفسِها بنفسها، ومنحتها الحقّ بالطلاق والحضانة، بالسفر واستخراج وثائق الهويّة والوثائق الرسميّة من دون ولاية رجل.

ألغى القانون الجديد كلَّ هذه الحقوق. ومَنَعَ تزويج المرأة إلّا بموافقة ولِيّها، بل منحه حقّ تزويجها من دون موافقتها. وشُرِّع زواج القاصرات الذي كان ممنوعاً في القانون السابق. وأعاد العمل بما يُسمّى «بيت الطاعة»، وسُمح بتعدُّد الزوجات من دون حسيب، وهو كان مقنَّناً في السابق، ومربوطاً بالتسبيب. وفرضت ولاية الرجل على المرأة في مناحي حياتها وحقوقها كلّها.

وكان هذا كلّه كما أسلفنا، انتكاسةً كبرى لمُكتسبات النساء التي حقَّقنها في جنوب ما قبل الوحدة.

***

وتغيّرت طبيعة الحياة في مدينة عدن. وهي المدينة التي شهدت تطوُّراً وانفتاحاً اجتماعيّاً هيّأهُما لها حُكم الاستعمار البريطانيّ طوال مِئةٍ وثلاثين عاماً، وأعقبه الاستقلال وحُكم الحزب الاشتراكيّ الذي سعى إلى التحديث الاجتماعيّ، مُصطفّاً في ضِفّة المُعسكر الاشتراكيّ والاتِّحاد السوفياتيّ في تلك الحقبة. وسُمِّي نظامه بالشيوعيّ في مُحيطه الإقليميّ.

ورُوِّعت النُّخب التي تربّت وشهدت حقبة ما قبل «الوحدة»، خافت وتقوقعت وانساقَ بعضها في مَوجة تيّارات الإسلام السياسيّ.

ومرّت السنون، وراوحت مواقع النساء ونشاطهنّ العامّ بين انتزاعهنّ بعض الحقوق وبعض النجاحات الفرديّة، وبين المُطالَبات والمُجابَهات مع عسف القوانين الانتهاكيّة، وهجمة الخطاب المتطرِّف المدعوم من الأحزاب والجماعات الدّينيّة. وكذلك من المنظومة الحاكمة التي استَخدمت قضايا النساء وحقوقهنَّ للمُساوَمة والمُقايَضة السياسيّة. وفي ظلِّ احترابٍ داخليٍّ وصراعٍ سياسيٍّ ودولةٍ يتنازع النفوذَ فيها العسكرُ ومشايخ القبائل وجماعات التطرّف الدّينيّ.

***

وحلَّ العام 2011 حاملاً أحلامَ غدٍ جديد. تقدَّمت النساءُ ساحات انتفاضة ما سُمِّي «الربيع العربيّ». ورأينا مشهداً عريضاً لمَسيراتِ النساء مُتّشحات بالسواد. لكنّنا احتفَينا بحضورهنّ الفيزيائيّ بتلك الكثافة غير المسبوقة، قبل أن نكتشف استخدام الأحزاب السياسيّة الانتفاضة الشعبيّة، وتكثيف حضور النساء فيها، وخصوصاً الناشطات المُنتميات

إلى تلك الأحزاب. وهي الأحزاب التي انحرفت بالانتفاضة إلى مُساوَماتٍ في سياق الصراع السياسيّ والحزبيّ على السلطة.

***

وفي مستهلّ ربيع 2015 دَهَمَتْنا حربٌ جديدة. أُصاب بهيستيريا، فأروح أُحدِّث نفسي بما سبق. متكوِّرةً ألوذ بركبتيَّ وأنشج مُنتحبةً وحيدة في غُربتي البيروتيّة التي كنتُ أتلمّس بداية حياتي فيها.

في بيروت رحتُ ألطم هواء غرفتي التي شعرتُ بجدرانها الأربعة تضيق وتُطبِق على جسدي، مُستعيدةً رعب تلك الأيّام من صيف 1994، فيما أتابع أخبار جحافل ميليشيّات الحوثي وقوّات الطاغية علي عبد الله صالح تقتحم مدينة عدن، في اجتياحٍ جديد يُعمِّق الجرح الذي أصاب جنوب اليمن في حرب 1994. جرحٌ لا يزال ينزّ صديدَه ولم يُشفَ منه بعد.

محرقة جديدة يصلني لهيبُها، في صوت أمّي وأخواتي وبكاء أطفالهنّ الهلعين المروَّعين. أتكوّر بعد كلّ مكالمة هاتفيّة معهنّ، أضمّ ركبتيَّ اللّتَين ليس لي من ملاذ سواهما في الغربة. أضمّهما منتحبةً بصوتٍ ظننتُ العالَم كلّه يسمعه. فأكتشف أن لا أحد يسمعه سواي. وليس لي سوى شاشة التلفزيون ومواقع التواصل الاجتماعيّ أستقي منها فجائعي اليوميّة. أرى مشهد اللّهب يتصاعد من البناية بجوار منزل أهلي. أتّصل ممسوسة، فلا أحد يجيب. ثمّ يأتيني نشيجُ أختي وكلماتها المتقطِّعة: اطمئِنّي لقد غادرنا اليمن جميعنا. تُخبرني عن طفلَيْها اللّذَيْن ينهضان في اللّيل زاعقَيْن وقد تبرّزا على نفسيهما. تذكّرتُ اصفرارَ أختي وتحوّل جسدها خيطاً نحيلاً على فراش المرض في الحرب السابقة.

أُسائل نفسي ومُلوحة الدمع الذي ينهمر تلسع لساني. دمعٌ لا يزال يوميّاً أو أسبوعيّاً حتّى اللّحظة يغسل وجهي كلّما سمعتُ خبراً عن استشهاد قريب أو عزيز في أتون حرب وقتل وتجويع وتشريد لا نعلم لها نهاية. وليس من تفسيرٍ يشفي تساؤلي الجريح: لماذا نستمرئ قتلَ بعضنا وأنفسنا؟!

ولا يصادي نحيبي سوى نحيب نائحات في جهات الأرض التي تشتّت عائلتي في مهاجرها. عائلتي وعائلات كثيرة من معارفي وأقاربي وأصدقائي في الوسط الأدبيّ والأكاديميّ، ونشطاء المُجتمع المدنيّ.

الهجرة والتشرُّد في أصقاع الأرض هو العنوان الأشدّ قتامةً في هذه الحرب، وخصوصاً النُّخَب. وشملت الحرب اليمن كلَّه، وخبرت «نخب الشمال» هذه المرّة كذلك مذاق عسف الجند وجحافل القتل، بعدما صمتت عن مظلمة الجنوب. وها هي تعيش ما يشبه تلك المرارة، مرارتنا. هي العبرة. فلطالما كانت النُّخب في بلداننا العربيّة الأكثر مخاتلة، وهي مَن يُناط بها إحقاق الحقّ، فإذا بها تتخلّى عن دَورها وتترك مكانها لبيادق الجبروت والظلم والجهل.

***

غير أنّ في هذه الحرب المستجدّة الجديدة، وَعت النساءُ ما قد ينتظرهنّ، وخصوصاً المُبدعات والناشطات منهنّ، اللّواتي حقَّقْنَ قدراً لا بأس به من انتزاع حقوقهنّ، فنجَّيْن بأنفسهنّ بالمهاجِر، وتلقّفتهنّ الغربة، وحيدات أو مع عائلاتهنّ.

وتتراءى إليّ يوميّاً قصص مغادرتهنّ «أرض اليباب»، يرُمنَ أرضاً آمنة تحفظ إنسانيّتهنّ، قبل أن يتعرّضْنَ للانتهاك. انتهاك تُهدِّدهنّ به يوميّاً سدنة الحروب ومِشعلوها. بعضهنّ يُحقِّقن ذواتهنّ الفرديّة، ويُحاوِلْنَ قدر استطاعتهنّ على مستوى المنظّمات المعنيّة بالسلام، وفي أروقة جماعات الفنّ والإبداع. يُجاهدْنَ لمدّ دلو الإنقاذ إلى قعر الجبّ، لعلَّهنّ يُنقذن ما تبقّى من جمالٍ في بلدهنّ المحترق.

يكمن خطر الحرب الحاليّة، إلى جانب القتل والدمار اليوميّ، في تجريف البنية الاجتماعيّة من نُخبها المتعلِّمة والمثقَّفة. تجريفها من كلّ محفِّزات السِّلم والأمن الاجتماعيّين، وإباحتها للغوغاء وتجّار الحروب، والسقوط في هوّةٍ بلا قرار، ولا نعلم متى نتوقّف عن الانحدار فيها.

خطر الحرب أنّ وقتنا فيها ليس وقتاً مُستقطَعاً من الزمن البشريّ، بل وقت منسيّ. وربّما خبِّئ في «مخزن عتيق» يحجبه غبار نيزك سقط سهواً في صحراء الربع الخالي، فسرقه خلسةً جدٌّ عربيّ نزِق. أو لعلّه وقتٌ علق في ظفائر السبايا في غزوةٍ بين قبائل العرب التي لا تكفّ تتغازى وتحترب في ما بينها!

«We were like a bird who had gotten its freedom but did not know how to fly» Recollections of a Woman Born during the Algerian Independence War

Imene Zoulikha Kassous
Fatma Allouch

When I saw the call for contributions for this volume, I spoke to my mother Fatma Allouch and proposed that we write something together about her childhood and that of her sisters during and after the Algerian War of Independence. This was not an interview as such, but a shared writing process with both of us asking questions and working on the structure of this testimony. This piece was first written in the Algerian dialect and then translated into English. The pronoun «I» used throughout the piece refers to my mother. While we have attempted to be as truthful as possible, we have had to withhold some details to protect the privacy and safety of our family.

I am now 65 years old, maybe less or more, I don't really know. I was born during the war of independence of my country, Algeria[1], and I was not immediately registered. It was only after

(1) Since 1830, Algeria was under the brutal colonial rule of France with many Algerians losing their lives, tortured or undergoing humiliations of various kinds at the hands of their colonisers. Throughout this period, the Algerian people constantly resisted the French and attempted to regain their freedom. However, the 1st of November 1954 is widely considered as the starting date of the Algerian War of Independence. Eight years later and with more than a million and half Algerian lives taken, the country gained its independence in July 1962, putting an end to more than a century of French colonization.

independence that I was taken to a doctor who prepared a certificate suggesting my age and the year I was born in. I am the youngest daughter of an Algerian martyr. I was born on a small farm in the west of Algeria. This farm was three kilometers away from the nearest hamlet(2) where other members of my family lived. I have three sisters and one brother. We were a financially stable family as my dad was a farmer and trader with a powerful status in his hamlet.

I was born in 1956, two years after the start of the Algerian war of independence. As a baby, I do not remember what happened during those years, but my family was more than generous in filling in the details.

My father was one of the most courageous *mujahideen* (guerrilla fighters)(3). He used to work on his farm during the day and help Algerian *mujahideen* at night to swim through the valley and navigate the right roads to join the *mujahideen* in other areas. One day, in the hot summer of 1958, the French soldiers came to our house, led there by a man they had forced to inform on my father.

As I was a baby, I do not remember anything about that day. The only thing my mother told me is that my father had bought me very nice red shoes shortly before he died, and I was wearing them when they came to steal him from us. The French soldiers brought my father into our house and kicked all of us out. They used chemicals, most probably yellow sulphur, which was mainly used for treating grape vines, and salt to torture him; they also hit him and carried out other forms of torture. They had not noticed that my elder brother was sleeping in another room, and the noise woke him up. He recalls seeing my father with one eye closed and the other open, with tears falling down his face. When the French soldiers saw my brother, they started asking him whether the *mujahideen* ever came to our house. But he did not understand and could not answer. They then took him out of the house. My brother was traumatized by this incident, and to this day, he feels afraid whenever he sees officers or anyone in uniform.

(2) A hamlet in Algeria refers to a small grouping of people living together and is smaller than a village. In Algeria, it is called دوار.

(3) Algerian fighters who fought against the French colonizers. We decided to use the term *Mujahideen* instead of guerrilla fighters because it represents the Algerian context more than the English translation.

A French soldier told my father that if he confessed, they would let him go. My dad replied, «I have nothing to confess or say, you enemy of Allah». They tortured him from 1 p.m. to 5 p.m., showing no mercy and then killed him with one shot. His only request was not to be left in the mountains to be eaten by animals. His family and his brothers searched for his body and buried him. They did not have the time to dig a new grave as they were afraid that the French would come and kill them. In the end, they buried him in someone else's grave.

Although our family had already been living in fear, the death of my father meant the end of safety and happiness; it was the real start of our misery. Fear was everywhere in our house. I was still a baby at the time, and I needed nutrition and love. However, there was none to be found. My mother was so traumatized that she was unable to take care of me, and her breast milk was affected. My eldest sister told me that whenever I felt hungry, I would eat soil. My body became so weak, and it was only due to the mercy of Allah that I am still alive and healthy.

After the death of my father, we moved to the hamlet and stayed there for two years as my mother was too scared to stay alone. My mother was also a *mujahida*, just like my father. She continued to fight after his death despite her psychological state. She lived under tremendous risk as there were many people who informed on her. Fortunately, the head of the hamlet and the *mujahideen* would always protect her. At one point, she had to stop and move to another area for her safety. The French colonizers approved her move, and our relatives built for us a very poorly structured house. According to the terms dictated by the French, no one was allowed to visit us, and my grandfather only came to see us a few times. We were very poor as my mother did not know how to manage my father's assets, and everything he owned including money, sheep, cows, yield, etc. slowly disappeared. The cattle either died or were stolen and my mother used the money to feed us and buy a house. The rest of the money was most probably stolen, but no one knows for sure what really happened.

Due to our poverty, my eldest sister decided to work as a housekeeper and cleaner. She was a young teenager at the time and had not had the chance to go to school. She worked in the house of an Algerian family but the wife

was jealous of my sister. She would mistreat and discriminate against her. So, my sister had to quit her job.

We got our independence in 1962. I remember seeing men, women and children in tractors and trucks celebrating, clapping, and ululating. My mother did not go out that day as she remembered my father and started crying because he could not see his country free from colonialism. All the other children were taken out by their families to celebrate, including children of martyrs, but no one hugged or embraced us. We were marginalized, and our house was always under French scrutiny before independence. For this reason, no one approached us even on Independence Day. My father was not there, so what did we expect? We stood there observing, like a bird who had gotten its freedom but did not know how to fly.

I would go with my other sister—who was two years older than me—to the market to bring home any leftover vegetables that we could find. I was always sad and afraid as a child. I was not like other children who would play happily and enjoy being outside. I used to avoid other children. I could not go to school. Actually, probably around 1964, I went for a month, but the teacher asked for my birth certificate, and I did not have one. It was then that my mother took me to the doctor to get registered. I did not return to school immediately but stayed home for almost a year. I only started school in 1966 when I was probably 10 years old, and I studied until the fourth year at primary school. I stopped going to school when we moved to another house. I felt embarrassed that all the other children in the classroom were younger than me. I was a very good student who had high marks although I had no one to tutor me at home. I did not have proper clothes, and I would sometimes walk without shoes. We were so poor that I started going with my sister to clean houses to support and feed our family. Then, I worked at a hotel for almost 6 weeks, washing dishes.

I felt jealous of other children. I would look at them going to school, and my wish was to go to school too, to wear nice clothes and to be a child. Sadly, I would compare my childhood and life to that of Palestinian children now.

As a girl, I felt that I was constantly under pressure with no sense of security. According to my mother, girls did not generally feel safe in the presence of the French soldiers, who used to abuse them, especially the

beautiful girls. For this reason, they were kept hidden at home to protect them. They did not wash themselves and stayed dirty just to hide their beauty. But since we lived on a farm that was 3 kms away from the nearest grouping of people, my sisters were not visible to the French soldiers and my father was very strong and could protect them. After the death of my father, we lived in the hamlet where we were protected by its head as well as the *mujahideen*. Then we moved to another place under French surveillance, and there were terms dictated by the French to control my mother's activities as previously explained.

The voices of girls were not heard in public at that time. When a man spoke, women had to stay silent. Whether it was during colonization or after independence I, as a girl, always felt afraid. When I walked in the streets, my head was always down, if someone talked to me, I would never reply or dare to speak up. I was afraid because I had no one to protect me or my siblings. It was only my mother who stood up for us all the time.

One example about my struggle as a young woman: When I started looking for a job, no opportunities were available. They saw me as a powerless female with no father and no one to support her. I could not find a job easily as I had no connections or people to refer me or put in a good word on my behalf. After a long journey of looking for jobs and getting disappointed, there were finally some people who believed in me and helped me. I finally found a job in 1982 when I was around 26 years old.

Growing up, we were deprived of our basic needs. We never had enough food; if we had lunch, we would not dream of eating dinner. We would all sleep in one place, using the same duvet. When it was cold, we slept uncomfortably, pressing our bodies together until the morning. We used to wait until there was some sun where we could stand to feel warmer.

In 1978 I went to France to stay with my eldest sister who had migrated there due to our poor living conditions in Algeria after independence. I stayed there for three years, and then my mother asked me to return home. There was an incident that I will never forget. We were at a market in France, when we met a Pied-Noir[4] who shamelessly told us to go back to Algeria

(4) French or European people who lived in Algeria when it was under the colonization of the French and left after independence.

because our country is very wealthy. I could not answer her because I was in their country. I wanted to say, 'you destroyed our country, you killed our people for 132 years, you killed my father, you left nothing good in our land'. I did not feel comfortable staying in France, and I am so happy that I made the decision to return to Algeria. Despite everything, I love being in my country, my dear Algeria.

Our lives and the lives of many Algerians were destroyed by colonization. I always wonder how our lives would have been if France had not colonized us. I am sure things would have been wonderful. We would have lived peacefully with our parents. I would have gone to school and my brother would not have been traumatized his whole life. But that life will remain only a dream.

الهروب إلى نانجيالا(*): كيف أنقذني الخيالُ في زمنِ الحرب

أليس يوسف

(*) مقطع من سيرة شخصيّة: تتناول هذه السيرة الشخصيّة مقطعاً صغيراً من حياتي في القدس ـ فلسطين في بداية أشهر الانتفاضة الفلسطينيّة الثانية (انتفاضة الأقصى 2000 ـ 2004)، أستقي هذه السيرة الذاتيّة من يوميّاتي كطفلة في أوجّ فترة الحرب، شهر آذار/مارس من العام 2001.)

في نانجيالا(**)، ليس هناك وقت

أمّا في غرفتي، فالساعة الثانية عشرة وسبع دقائق. ما بين عودة فيلاياس فوغ للندن واكتسابه الرّهان غفوتُ. غفوتُ قبل ساعة وأنا أحلم بالمدرسة وبلندن وبمزيدٍ من الكُتب. غفوتُ وعلى طاولتي هنالك دفتر وقلم حبر تعلّمتُ الأسبوع الماضي كيف استبدل الرصاص به ورزمة من الكُتب تضيء أغلفتها لمبة صغيرة مربّعة للقراءة. غفوتُ والمدينة يلفّها الهدوء وبقايا مطر الأمس.

بعد أعوام من هذه اللّيلة سيبقى في ذاكرتي ضوءُ أزرق يتراقص على الخزانة البيضاء التي تقع قبالة غرفتي وتطلّ على الشارع العامّ. بعد أعوام سيبقى في ذاكرتي صوتُ أزيز عالٍ كأنّ إمعاء الشارع العامّ تتمزّق ألماً طول اللّيل. بعد أعوام سيبقى صوتُ أمّي التي ترفض أن تطيع يعلو في أذني.

في نانجيالا، شجر كرز ولوز...

في الباحة المُقابلة لمنزلي شجرة لوز نُحبّها كثيراً أنا وإخوتي وأولاد الجيران الأربعة، في

(**) نانجيالا: بلدة متخيَّلة في كِتاب «الأخوان» لأستيرد ليندجرين، تعيش هذه البلدة وفق زمن المُغامَرة والأسطورة وتمتاز بشجر الكرز واللّوز والهدوء.

تلك الأرض الكبيرة أيضاً أربع أشجار زيتون وعشب كثيف وهضبة إسمنتيّة صغيرة وخشب لبيت الشجرة. ومساء هذه اللّيلة ثلاث دبابات بجنازير كبيرة تجرّها فتترك أثراً و«جيب»عسكري. في بيتي أهلي والجيران وأولاد الجيران الأربعة وجنديّان بطلاءٍ أسود على وجوههم.

في نانجيالا، كاتالا التنّين العنيف ينفث ناراً ويشلّ ما يمشي في طريقه.

وفي باحة المنزل تُحرّك الدبّابةُ مدفعيّتها لليمين ولليسار، وفي كلّ حركة بعيدة عن زجاج المنزل نسمع زفيرنا كلّنا مرّة واحدة. لا مكان آخر نذهب إليه الساعة الثانية بعد منتصف اللّيل. في بطن البيت نتكوّر على ذواتنا تحت بطّانيّةٍ واحدة أغلبنا يهمس وبعضنا يُصلّي والباقي يرتجف... الحرب أرخت أوزارها وشلّتنا جميعاً بنارها.

كلّما فكّرتُ بعمقٍ في ما تعلّمته خلال الصفّ السادس خرجتُ بدرسٍ واحدٍ فقط: هنالك أشكالٌ عدّة للخوف، وشكلٌ واحدٌ للشجاعة. الشجاعة ليست اندفاعاً، وليست عُنفاً وهي حتماً ليست أن تقف من دون أن ترجف رجلاك مع أنّه طبعاً من المستحبّ ألّا ترتجِف: إنّما الشجاعة شيئان فقط، أن تتعلّم كيف تستعمل عقلك وأن تهرب. نعم أن تهرب!

بعد أسبوع من استيقاظي في منتصف اللّيل و«صبحيّة» الشاي غير المتوقّعة مع الجيران، تمكّنتُ من العودة إلى المدرسة لبعض الأيّام وهنالك تعلّمت أوّلَ طريقة للهرب. الشوارع في المدينة لا تشبه ذاتها، كلّها اكتسبت ندباً جديدة وبعضها مبقور البطن ينزّ ماءً وأخرى لمع بنحاس الرصاص المفرَغ وغيرها ما زالت الدبّابات تحرسه. في ساحة المدرسة، كلٌّ منّا يتحدّث عن بيته وكأنّ العالَم الواسع ضاق كثيراً جدّاً ليحمل بيتُ كلٍّ منّا عالماً: فتارة عالَم بزجاج اخترقه رصاص وتارة عالَم آخر مُنزَوٍ لم يطلْ غير أزيز الطائرات وصوت قصفها وآخر تبعثرَ فيه السكّر والزيت والأرز الجافّ في خلطةٍ لم تكُن على بال أيّ واحد. طالبات الصفّ السادس وغيرهنّ ممَّن اختلفت عليهنّ الحياة قد بدا واضحاً أيضاً أنّهنّ وأنا منهنّ اعتدنا على الأصوات العالية الآمرة «بيتك بيتك» مثلاً، أو «ممنوع التجوّل حتّى إشعار آخر». فلم نجفل حين جاء الصوت واضحاً: «يا بنات وَقْفوا بالصفّ وبلا حديث جانبي». معلّمة الرياضة الجديدة صرخت فينا وكأنّنا بلا سمع. وعندما ضَبَطَتِ الصفَّ أدارت ظهرها للحضور وأشارت للجرس: حين يقرع هذا الجرس ولا يتوقّف أريد

مِن كلِّ منكنّ أن تعمل ما يلي. أشارت إلى الأرض وفجأة اختفت. تحلّقنا حولها بأعْيُنٍ واسعة، فقد كانت «المِسّ»(*) على الأرض كسمكة خرجت مِن الماء تُحرّك يدَيْها للأمام ثمّ تدفع برجلَيْها لتجعلَ جسمَها يسير للأمام زحفاً على الأرض كأفعى. ضحكة خافتة أطلقتها روان والتي جعلت «المِسّ» تقفز على قدمَيْها وتصيح بروان: «ما بمزح، اليوم بدّنا نتعلّم وضعيّة النزول إلى الملجأ، لأنّه بدنا نحمي حالنا... مِيِّة جبان ولا الله يرحمني».

في التدريب التفاعليّ للهرب لم أفكِّر، أطعتُ فوراً، ولكنْ عندما وصلنا إلى الملجأ المدرسيّ لم أتمالك نفسي. كنتُ قد أعددتُ ذاتي لرحلةٍ مُثيرةٍ كأبطالِ كونان دويل، حتماً إنّ الركض على الدرج متبوعٌ بهذا الزحف كلِّه تجاه باطن المدرسة سيفضي إلى دينصوراتٍ أو على الأقلّ إلى بركانٍ أو نباتاتٍ غريبة خارقة أو زهور أو شيء ما وراء البيانو الكبير غير الغبَرة ويا لخيبة الأمل عندما وجدتُ نفسي في قاعة الرياضة التي حَملت في زاويتها قارورات مياهٍ ومعلَّباتٍ وعدداً من الفرْشات الرياضيّة الزائدة!

إلّا أنّ العودة إلى المدرسة ولو لبعض أيّام أعادت لي الإحساس بالحياة الطبيعيّة. لم تُخبرْني أمّي أو أيّ من معلِّماتي أنّه في الصفّ السّادس تحدث كلّ التغييرت المُلهِمة لفتاةٍ نحيلة في الحادية عشرة من عمرها! ففي هذه السنة الدراسيّة المحظوظة تتّسع المساحة للحديث عن الجسد الذي يتغيّر وتكبر دفاتر الواجبات وتتعقّد الكلمات التي نستطيع بها أن نُعبِّر عن كلّ شيء والتي بدورها تهرب حين نحتاج إليها في الظلام. كانت هذه اللّحظات العابرة مُتنفَّساً لي وللأخريات كما كانت محطّةَ أمانٍ وسعادةٍ لأمّي حين ترى أنّني ما زلتُ فتاةً طبيعيّة ولم أتحوّل إلى «حسن صبي» بشعري القصير وإصراري على تعلُّم الفتبول و«تعربش السور» مع أولاد الحارة حين كان يخفّ دَويُّ المَدافع. لم تكُن أمّي بحاجة إلى القلق ولكنّي لا ألومها، فماذا يحدث عندما يتغيّر عالمك كلّه بلحظة؟ وماذا يحدث للطفولة وكيف نذكرها؟

الذاكرة خوّانة فهي تميل بنا عادةً تجاه مكيال الفرح، ولربّما هنا نقف مُمتنّين قليلاً، وبخاصّة ممّن كبر، للنسيان اللّحظيّ. ففي النسيان اللّحظيّ هروبٌ ثانٍ، وبالتالي، شجاعة. أن تنسى للحظة أنّكَ طفل تعيش بحربٍ معناه أن تتعلّم كيف تقود درّاجة هوائيّة

(*) «مِسّ»: مُعلِّمتي، تُستعمَل عادةً في فلسطين كترجمةٍ حَرفيّة للمُصطلح الإنكليزيّ «آنسة» في إشارةٍ إلى المعلِّمة.

في مساحة الكراج المُخصَّص لسيّارة «فيات» لا تسع سوى أربعةِ ركّاب. أن تنسى للحظةٍ معناه أيضاً أن تضبطَ مَن يغشّ من إخوتك الصغار في لعبة «المونوبولي» والتلفاز يُعيد تدوير أخبار الأمس ويزيد عليها أرقاماً لا شأن لك فيها. أنْ تنسى معناه أن تتعلَّم السباحة وتأخذ أبعد الطرق إلى المسبح لتتفادى صيد القنّاص. أن تنسى لثانيةٍ أنّ عالمكَ ينهار معناه أن تأخذ الألوان المائيّة كلّها وتلوِّن بها جميع وجوه السياسيّين والجنود في الجريدة ثمّ تتذكَّر فتلفّ الجرائد بالكيس الأسود وتلقي بها في أقرب حاوية. أن تنسي كفتاة أنّ الحرب تأخذ أطفال الآخرين معناه أن تُغطِّي لعبتك ببطانيّة أخرى خوفاً عليها من برد اللّيل وتضمّيها إلى صدركِ حين تئنّ الطائرات في السماء.

ولكنّي ظلٌّ مختلف في تعريفات الخوف وأساليب الهرب. كنتُ أنا قد اخترتُ الطريق الأبعد، الأكثر أماناً. لربّما لم اختَرْ هذا الهرب عن وعي ولكنّه لازمني وغيَّر كلّ حياتي بل يُمكِنني أن أقول إنّه أنقذني. عندما كانت القذائف تهبط فوق مدينتي وعندما كنتُ أسمع وأرى الطائرات تحلِّق فوق بيتي الصغير كنتُ اختبِئ تحت بطانيّتي وأتظاهر أنّي لا اسمعها وأقرأ. أنا هربتُ من لندن إلى نانجيالا وثمّ إلى بلد العجائب، وإلى عُمق البحار. جلتُ مع جول فيرن وكونان دويل وهيرمن ميلفل ولويس كارول وشارلوت وإيملي برونتي أينما قرّروا أن يرحلوا بي. في العالَم المُوازي كانت نجدتي: ففي لندن ومع فيلايس فوغ كسبتُ الرهان ضدّ الزمن، وكأليس لحقتُ بالأرانب التي رَسَمَتْها أصابعي في ظلّ المصباح على الحائط لأهدِّئ من روع أخواتي في العتمة. وفي خضمّ الخوف من الطغاة ولشدّة هَوَسي بكتبِ استريد لدنجرين ضعتُ في ثورة وادي الكرز ضدّ تنّين نانجيالا وضدّ الموت الذي شبعتُ منه في الأخبار والصحف. كانت الكُتبُ طوقَ نجاةٍ لأنّي حين أغمض عينيّ أنتقل فوراً إلى عالَم يختلف تماماً عن العتمة والخوف والظلمة: كان عالَماً من نور وزهور وأبطال وبطلاتٍ. أسعفتني البطولة الأنثى، لأنّي وكهاربة، لم أعتقد يوماً أنّني أملك ذرّةً واحدةً من الشجاعة التي كانت من نصيب الأخريات وتجاوزَتني. كنتُ أعي قَدَري، أنا كانت لي الكلمات وللأخريات الفعل. وفي ظلّ الفوضى كان للكلمة الأثر الأكبر والحظّ الأوفر، فالذاكرة المُتناسِية تُسعفني في المرّات التي ضَبَطَتْني أمّي وأنا ألتصق بلمبتي الصغيرة أُخبِّئ كتاباً ليساعدني على تجاوُز الأرق الذي سبّبه لي دويُّ الرصاص، أرى أمّي تهزّ رأسها: «رح تخربي عينيكي بالقراءة على النوّاسة!.» الهرب للخيال تَرَكَ مساحةً

صحيّة في الواقع، ففي باطن الأرض أو حفرة أليس وغيرها لا تُطبَّق القواعد الخاصّة بالعالَم الحقيقيّ: أشياء تطير والحيوانات تتحدّث والأجساد تكبر وتصغر. بينما في البيت، الأجساد تكبر والقلوب تصغر والأصوات تعلو واللّيل موحشٌ؛ في العالم الخياليّ يسود الهدوء وتتدرّج الألوان. في العالَم المُتخيَّل يُمكِننا أن نكون ما نريد مِن دون أن يضبط أحدٌ دوافعَنا أو أن تلوِّث أحذيةُ الجند أحلامَنا. ولربّما هنا كَمَنَ سرُّ الشجاعة: إنّني في هذا العالَم، ولو لِلَحظاتٍ، استطعتُ أن أكون كما أريد: بشعر طويل أو قصير، بروح مغامرة أو خجولة، بزمن يشبه ذاك الذي على ساعتي التي تتقدّم ساعتَين عن غرينيتش. كنتُ أنا كما تخيّلتُ ذاتي: آمنة لأنّي أنا حرّة.

الساعة الآن السادسة بتوقيت القدس.

في نانجيالا، ليس هناك وقت.

في نانجيالا تركتُ نسخةً مِنّي، فتاة تبحث عن ذاتها تحت شجرة لوزٍ.

أبحث عنّي.

مشهديّة طفولة في زمن الحروب

أمال حبيب

أعود بالذكرى إلى طفولتي وإلى أحداث 1958 التي عصفت بلبنان لمدّة خمسة أشهر. لم أكنْ أعرف يومها أنّني كنتُ أعيش تجربتي الأولى مع الحروب. ذكريات تخلط ما بين لعب الطفولة ودويّ المعارك بقِيتْ قابعةً في أعماقي طيلة حياتي، تطفو إلى الواقع كلّما عشتُ لحظاتٍ مُماثِلة لتُصبحَ في سرعة برق صلةَ الوصلِ ما بين الحاضر والماضي، ولتنقُلَني إلى صُوَرٍ وإلى مشهديّةٍ عشتها صغيرة وأصبحَتْ جزءاً من التاريخ.

ولدتُ ونشأتُ في بيروت في منطقة «المصيطبة» من عائلة بيروتيّة قديمة غدت منذ مئات السنين من سكّان بيروت الأصليّين. تعود جذورها بحسب سجلّات العائلة إلى إحدى القبائل العربيّة من الأمراء الغساسنة الذين نزحوا من جبل حوران في سوريا إلى عكّار وكوسبا وبعلبك وطرابلس في لبنان. أسّسها أحد أفرادها الذي قَدِمَ إلى بيروت سنة 1700. ومنه انحدرت عائلة «حبيب» التي ما زالت حتّى أيّامنا هذه قائمة بين سكّان منطقتَي المصيطبة والمزرعة في الجزء الغربيّ من بيروت.

كانت منطقة «المصيطبة» تُشكِّل نموذجاً» لِما كانت عليه مدينة بيروت في الخمسينيّات بجمالها

وتناقضاتها. اسمها مُشتقٌّ من كلمة مصطبة أي المكان المُرتفع لأنّها كانت امتداداً صخريّاً لِما كان يُسمّى «البريّة». فقد كانت في بداية القرن الثالث عشر منطقةً صخريّةً مُرتفعةً عن مستوى المدينة القديمة وبعيدةً عن حدودها البحريّة. وكانت تُعدّ من أجمل المناطق البيروتيّة. تُشبه القرية ببيوتها القرميديّة، وتتميّز بمناخ مُعتدل جَعَلَ العائلات البيروتيّة تقصدها صيفاً للاصطياف. ثمّ تنامت حتّى أصبحت حالّيّاً من أكبر مناطق بيروت إداريّاً.

ما زلتُ أتذكَّر بيوتها بهندستها العمرانيّة الجميلة وواجهاتها الزجاجيّة على شكلِ قناطر تُكلِّل شبابيكها وحدائقها التي كان أصحابُها يحرصون على زراعة أنواع متشابهة من الزهور والأشجار، منها شجر الياسمين والفتنة والأكيدنيا واللّيمون. إضافة إلى أشجار الكولونيا التي كانت تفوح رائحتها في جميع الأرجاء، وعرائش العنب التي كانت تمتدّ فوق السطوح تُسامِر أُمسيات الصيف، وأيضاً» أشجار البلح في بعض الحدائق الكبيرة التي كانت تضفي جوّاً» شاعريّاً» عليها. وكان منزلنا بهندسته التراثيّة وحديقته الغنّاء يقع على تقاطع أربعة طرق. وعلى الجانب المُعاكس لمنزلنا، قام بيتُ الجيران، أيضاً بحديقته الكبيرة المزروعة بأشجار البلح، فكان الجار الدائم الجمال.

ما كان يميِّز منطقة المصيطبة هو نسيجها الاجتماعيّ الذي كان مثل مدينة بيروت يتمتّع بالتنوُّع والتعايُشِ فيها[1]. وهي على الرّغم مِن توسّعها واستيعابها التغيّرات الاجتماعيّة في أطرافها الجنوبيّة (ولاسيّما بعد قيام الجامعة اللّبنانيّة فيها في الخمسينيّات) ظلّت تُحافظ على مُجتمعها التقليديّ وعراقة العائلات المُحافظة لديها والمُنتشرة على شكلِ مُجتمعاتٍ صغيرة. كانت العوائل والأقارب مثلاً المتفرِّعة من «الجب» نفسه أو العائلة نفسها تعيش على وجه الإجمال في الحيّ نفسه فتنمو في ما بينها علاقات أشبه بالعشائريّة. وعلى الرّغم مِن ذلك كانت العائلات المسيحيّة والمُسلمة تعرف بعضها بعضاً

(1) كانت منطقة المصيطبة تاريخيّاً وبشكلٍ أساسيّ معقلاً للأرثوذكسيّة والسنيّة نسبةً إلى كنائسها وجوامعها المتواجدة منذ مئات السنين مثل جامع برج أبي حيدر وكنيستَيْ مار إلياس المصيطبة ودير مار إلياس بطّينا وأيضاً كاتدرائيّة مار بطرس ومار بولس لطائفة السريان الأرثوذكس، فضلاً عن تواجُدٍ للطائفتَيْن السريانيّة والدرزيّة في «حيّ السريان» و«وطى المصيطبة» و«كركول الدروز» و«عيشة بكّار» للشيعة التي تُكمِّلُ جميعها الخريطة السكّانيّة لمنطقة المصيطبة. كما كان (وما زال) «مُخيّم مار إلياس» للفلسطينيّين يُذكِّر بالوجود الفلسطينيّ في لبنان بعد احتلال فلسطين. كانت العائلات تَنتشر ضمن أحياء نسيجها أشبه بقرىً صغيرة تُلامِس الأحياءُ المسيحيّةُ منها الأحياءَ السنيّةَ وتُكمّلُ بعضها بعضاً. كان الحيّ المسيحيّ (عائلة حبيب) مثلاً ينتهي (أو يبدأ) عند بَيتي، فيما الحيّ المُسلم من منطقة برج أبي حيدر يبدأ مع بَيت جاري الجميل في الجانب المُعاكِس.

وتشترك في العَيش المُشترَك، تتبادل الزيارات وواجبات المُعايدة والتعازي على أساس الودّ والمحبّة وحُسن الجوار.

في هذا المحيط النموذجيّ من بيروت الخمسينيّات أمضيتُ طفولتي ونشأتُ وكبرتُ وما زلتُ أسكن فيه على الرّغم مِن التغيُّر الذي عرفه. تحيط به ذكريات هي جزء من شخصيّتي ألجأ إليها كلّ ما أردتُ تأكيد أصلي وانتمائي، أو عند الإجابة عن السؤال الذي يَطرحه عادةً اللّبنانيّون عند التعرُّف بعضهم على بعض «أنت مِن أيّ منطقة من لبنان؟» أو «أنتِ من أيّ قسم من بيروت»؟ تطبّعتُ بمزايا المنطقة التي أنتمي إليها فألِفت التنوُّعَ والتعايُشَ منذ الصغر وقد أَصْقَلَتْهُما بيئةٌ عائليّة غير طائفيّة وغير حزبيّة. فأوّل مدرسة ارتدتها كانت مدرسة ابتدائيّة خاصّة علمانيّة يرتادها أبناء وبنات جميع عائلات المنطقة تمتاز بتنوُّعِها وبجودةِ تعليمها حيث لم يكُن للطائفيّة أيّ وجود. فكانت هيّام الشيعيّة وسلوى ورجاء الدرزيّتان مع آدال وفيكتوريا المسيحيّتَين من أقرب الزميلات إلى قلبي في أيّام الدراسة وقد بقينا صديقات مدى الحياة. وكانت فاطمة وعلي وغيرهما من أولاد الحيّ أتراب اللّعب في حدائق الحيّ خارج أوقات دوام المدرسة. صورة شاعريّة أخرى بقيت حيّة في مخيِّلتي ومَشاعري حتّى اليوم عندما كان يقرع جرس الكنيسة في حيِّنا (كنيسة مار إلياس المصيطبة) تمتزج دقّاته يوم الأحد مع صلاة الآذان في الجامع المُحاذي لها (جامع برج أبي حيدر) بينما روائح الحدائق تفوح عطراً في الأجواء.

أمّا بالنسبة إلى السياسة فلم أكُن أستوعب معناها ولا أتذكَّر أيّ نقاشاتٍ سياسيّة ضمن أجواء العائلة على الرّغم من أنّ الحروب كانت حاضرة في يوميّاتي. فقد كانت جدّتي التي كانت تعيش معنا في البيت تحبّ قراءة التاريخ وتروي لنا، إخوتي وأنا، أخبارَ الحرب العالَميّة الأولى والثانية وأحداث استقلال لبنان، بما فيها الشهادات الحيّة عن استشهاد رجالات عائلات بيروتيّة من المصيطبة وغيرها في سبيل استقلال لبنان!

إلى أن كانت أحداث صيف 1958. «صيف الدم» كما وُصف لاحقاً (أصفهاني، 2021). فجأة انقلب المشهد. اِنقلب حُسْن الجوار إلى اقتتالٍ بين الجيران وبدا التعايش فكرة هشّة في أركان التنوُّع الطائفيّ. لم تَعُد الحربُ قصّةً ترويها لي جدّتي بل حقيقة عشتها في بداية الصيف من هذا العام أتعرّف يوماً بعد يوم على مظاهرها ومخاوفها من دون إدراك خلفيّاتها. أصبح بيتنا خطَّ تماسٍ بين الحيّ المُسلم المُعارِض من جهة والحيّ

المسيحيّ الموالي من جهة أخرى، وأصبح البيت الجار الجميل على الجانب المعاكس هو «العدوّ». فجأة أَصبحت منطقة التعايش والتسامُح ساحةً لحربٍ بين شارع وشارع، مُسلم ضدّ مسيحي، مع اقتتالٍ وتبادُلٍ للرصاص والهجوم بالبنادق والقنابل وأصابع الدّينامايت وتعدِّيات على الأشخاص والمُمتلكات الخاصّة، حتّى من بَيتٍ إلى بيت. حتّى اليوم، أتذكّر خوفي من سماع تبادُل الرصاص في الشارع قرب بَيتي. وكيف كان يُطلَب مِنّا، أخواتي وأنا، الاختباء وعدم الاقتراب من الشبابيك المُقفلة. لم نكُن نفهم ما يحصل، ولكنْ كنّا نتلمّس واقع ما يحدث من خلال الأحاديث التي يتبادلها أهلي وأقربائي. فكانوا يتناقلون بحذرٍ أخبارَ نصبِ متاريس رمليّة بين الأحياء ووجود حاجز رمليّ بيد الأحزاب المُعارِضة المُسلِمة في منطقة البربير وآخر لتحصيناتٍ رمليّة نصبتها تجمّعاتٌ مسيحيّة في الشارع الخلفيّ. ويصفون بخوف حوادث انفجار القنابل اليدويّة التي كانت تَستهدف المدنيّين في الأماكن العامّة من مدينة بيروت. كانت توضَع في سلّة البيض وتارة تنفجر في تراموايِ ساحة الشهداء وتارةً في دُور السينما أو في الحدائق العامّة... المهمّ زَرْع الفتنة وإيقاع أكبر عدد من الإصابات من جرحى وقتلى. كانوا يتكلّمون أيضاً بقلق وخوف عن هذا الاقتتال الطائفيّ وكيف أنّ جماعات الفريق المُسلم المعارض تُطلِق النار باتّجاه بيتنا (من ناحية بيت الجار الجميل) لتردّ عليها جماعاتُ الحيّ المسيحيّ التي حملت السلاح بعدما شعرت بالخطر يتهدَّدُها. وكانت تَستعمل حديقتنا لتبادُل النار ومن ثمّ الانسحاب إلى الشوارع الخلفيّة.

كان خوفهم مبرَّراً. ففي إحدى اللّيالي من شهر تمّوز/يوليو في الساعات الأولى من اللّيل، وبينما كنّا أخوتي وأنا قد خلدنا إلى النوم، تمّ استهداف بيتنا مباشرة من قبل الجماعات المُعارِضة التي هاجمتنا وأَلقت «قنبلةً يدويةً» انفجرت في «الدار» في وسط البيت مُحدِثةً دويّاً رهيباً وأضراراً ماديّةً جسيمة، أذكر حتّى الآن دويّها ولهيبها الأحمر والبرتقالي ورائحة النار والبارود تنبعث في أرجاء البيت، وكيف استيقظتُ مرعوبة على دويّ الانفجار. لم يصب أحد بأذىً لكنْ أمام هلعنا وصراخنا ونوبة الخوف التي أصابتنا أنا وإخوتي تمّ تهريبنا من الباب الخلفيّ عند عمّتي في البيت المُجاور حيث تمّ إسعافنا وتهدئتنا حتّى اليوم التالي. كانت رسالة بحت طائفيّة طَبعت صورتها ذاكرتي وأحاسيسي. وأَصبحت مشهديّة طفولة تحضر إلى ذهني كلّما سمعتُ دويَّ انفجار أو صادفتُ ظروفاً مُماثلة.

كانت هذه الحادثة كفيلة بترك أهلي البيت والمنطقة والهروب بنا إلى مكان آمن، فلجأنا إلى مصيف ضهور الشوير الهادئ حيث لم يكُن للاقتتال والقنابل والرصاص أيّ وجود. ولم يكُن يذكّرنا بالحرب الدائرة في بيروت سوى طيران طائرات «الهليكوبتر» الخاصّة بالجيش الأميركيّ التي كانت تحلّق على علوٍّ مُنخفض وتُفرحنا بالحلوى والشوكولا التي كانت ترميها للأطفال. وقد عرفتُ لاحقاً أنّها كانت للأسطول السادس للجيش الأميركيّ الذي كان قد تدخّل في أحداث لبنان للمُساعدة.

مع الأيّام والسنين تعرّفتُ إلى ما وراء هذه المشهديّة[2]. لقد تعدّت أحداث العام 1958 أزمة صيف عابرة وأصبحت نمطاً أو «سيناريو» توقّف عنده المحلّلون في ما بعد وانكبّوا على تحليل وقائعه لتفسير الحروب والثورات التي تعاقبت على لبنان إلى يومنا هذا، حتّى أنّها لُقِّبَت في قراءة حديثة لها بـ «ثورة 1958» أو «الحرب الصغرى» التي شكّلت «بروفة» لحرب العام 1975 (masdardiplomacy.com.nd) لكثرة أوجه الشبه في ما بينهما. فتداخُل الداخل بالخارج، والمُحاصَصة الطائفيّة وإشكاليّة المُطالَبة بالتغيير والإصلاحات، والاقتتال بلهجةٍ طائفيّة، والاتّكال على القوى الإقليميّة والدوليّة لحلّ المُشكلات الداخليّة لا بل استجلاب مشكلات هذه الدول إلى لبنان... إلخ، هذه كلّها شكّلت سيناريوهات نموذجيّة» في تاريخ الأزمات والحروب التي عرفناها في لبنان بعد العام 1958.

(2) أحداث 1958 بدأت تباشيرها على الصعيد الخارجيّ مع حوادث 1956 عندما بدأ التوتُّر مع مصر بعدما رفض الرئيس كميل شمعون الوقوف إلى جانب الرئيس جمال عبد الناصر عند قطع العلاقات الدبلوماسيّة مع الدول الغربيّة التي هاجمت مصر أيّام أزمة السويس، بل تبنّى إدخال لبنان في حلف لا شأن للبنان فيه هو حلف بغداد الأميركيّ الإنكليزيّ الفرنسيّ الذي اعتبره الرئيس عبد الناصر تهديداً له وللقوميّة العربيّة. ارتدّت هذه الأزمة داخلياً عندما أراد الرئيس كميل شمعون التمديد لنفسه في رئاسة الجمهوريّة على الرّغم من اتّهامه بتزوير الانتخابات النيابيّة في العام 1957 فاشتدّت النقمة عليه وساءت الأوضاع التي أدّت إلى تشكيل مُعارَضة تُطالِب بالإصلاح السياسيّ والإداريّ. لم تبقَ المُواجهات عند هذا الحدّ، بل اتّخذت طابعاً طائفيّاً مُسلماً مسيحيّاً عندما طالَب المسلمون المُعارضون من الحكومة اللّبنانيّة الانضمامَ إلى الوحدة التي ألّفها الرئيس عبد الناصر بين لبنان وسوريا في العام 1958 تحت راية الجمهوريّة العربيّة المتّحدة، بينما أراد المسيحيّون الموالون التحالُفَ مع الدول الغربيّة وتحالُف بغداد. فحصلَ تمرُّدٌ إسلاميّ مسلّح على أثر حصول المُعارَضة الإسلاميّة على السلاح من الجمهوريّة العربيّة المتّحدة تطوّر إلى اقتتالٍ طائفيّ مُتبادَل بين المُواطنين على كلّ أرجاء الوطن. كان ردّ الرئيس شمعون على هذا الاقتتال بالطلب إلى الحكومة الأميركيّة المُساعدة، فأَرسلت جيوش المارينز إلى بيروت في مهمّة إعادة الأمن انتهت بانتخاب الرئيس فؤاد شهاب رئيساً للجمهوريّة بعد عدول الرئيس كميل شمعون عن التمديد وتعديل الدستور.

توالت الحروب الكبيرة والصغيرة على لبنان منذ سنة 1975 بسيناريوهات مشابهة. غير أنّها كانت تتطوّر وتتّسع دائرتها مع السنين. كانت مظاهر العنف والاقتتال تتصاعد وتيرتها من حربٍ إلى أخرى مخلّفةً كلّ أشكال الخوف والرعب والترهيب. وكان مقدار عنف الأسلحة المستعملة مرتبطاً بمستوى مطالب الفرقاء، ويشتدّ قسوةً وضراوةً وخراباً كلّما علا سقف المطالب والأهداف وصعوبة الحصول عليها. ففي حرب السنتَين 1975 ـ 1977 كانت الأسلحة الخفيفة هي السائدة على الرّغم مِن أنّ راجمات الصواريخ كانت تمطر بصواريخها في بعض المعارك الأحياءَ السكنيّة. وأخذت الأسلحة تزداد معاييرها ثقلاً من حربٍ إلى أخرى. وكان لدويّ المدفعيّة الثقيلة في حرب الإلغاء (1990)، وحرب التحرير (1989)، ولغارات الطيران خلال الاجتياح الإسرائيليّ على بيروت (1982) وأصوات الانفجارات وقْعٌ خاصّ عليّ. فبمجرّد سماعها، تنتابني نوبات الخوف وردود فعل تنقلني مباشرةً إلى صورة الانفجار الذي عشته في مشهديّة طفولتي.

لم يكُن الأمر مغايراً مع انفجار مرفأ بيروت في 4 آب/أغسطس 2020. ماذا كانت الرسالة والمطالب وراء هذا الانفجار الهائل والمروّع الذي كسح مدينة بيروت بلحظات؟ كنتُ حينها أقوم بزيارة أختي في الأشرفيّة في بيروت جالسةً مع أخواتي في الصالون مقابل شرفة زجاجيّة. سمعتُ دويَّ أوّل انفجار مع هدير طائرة. لم أتمالك نفسي ومشاعري فوقفتُ فوراً مذعورة متأهّبة لانفجار ثانٍ. كانت ردّة فعلي عنيفة منبعثة من مشهديّة طفولتي بينما بقي الجميع جالسين هادئين في مقاعدهم. وقبل أن نفطن لما حدث كان عصف الانفجار يقتحم المنزل مخرّباً مكسّراً جارفاً وقاذفاً بجسدي مثل طابة في مهبّ عاصفة غضب هوجاء ليرطمني بالباب الزجاجيّ ويرميني لأمتار عدّة في الغرفة المُجاورة. كانت إصابتي بالغة. كسور ورضوض في جميع أنحاء الجسم استلزمت عمليّة جراحيّة ومُعالجات دامت أشهراً. لم يَنَل الانفجار إلّا منّي، ولم يُصَب أحد غيري بأذى. ومرّة أخرى كان أثر مشهديّة الطفولة يُسجِّل حضوراً مؤلماً في حاضري.

لكنّ أوجاعي بدت نقطة في بحرٍ أمام أوجاع الوطن وهول الفاجعة التي حلّت في لبنان مع كارثة المرفأ والخراب الذي أصاب مدينة بيروت. اختلطت المشاعر أمام هذه المشهديّة التي فاقت كلّ الأهوال والتي امتزجت فيها مشهديّات كلّ الحروب الماضية. وأصبحت تنسحب على مشهديّة وطن كامل تُدمى القلوب فيه من كثرة مآسيه ومُعاناته

ومخاطر انهياره وعذابات أهله. السيناريوهات ما زالت هي هي مِن عشرات السنين حتّى يومنا تتكرّر في كلّ مرّة بأدواتٍ أشرس وأفتك وتأخذ بدرْبها الحَجَر والبَشر وتجعل من الطفولة أولى وأهمّ ضحاياها الصامتة.

لعلّ اللّيل ينجلي يوماً وتُشرق شمسٌ جديدة على لبنان تُعقَد عليها الآمال والخلاص.

من ذاكرة الحرب السوريّة المُهمَّشة: قصّة نجاة مُراهقتَيْن أَنضجتْهُما نيران الحرب دفعةً واحدة

زكيّة قرنفل

تمهيد

ثمّة مخيّلة مُتوارَثة عن الحرب، أبطالها رجال يُخطِّطون ويُقاتلون ويُقتلون، يربحون ويخسرون. أمّا المرأة فيها، فهي كتلك الإضافات التي يدسّها المُخرج في أفلامه، كي تكون بمنزلة مشهدٍ جانبيّ لإضحاك المُشاهِد. الجميع يتعلَّم في المدرسة أنّ ألمانيا بقيادة هتلر ورجاله خسرت الحرب العالَميّة الثانية، ولكْن مَن يُعلِّم الجميع عن دور النساء الألمانيّات في الحرب؟ بل مَن منهم سمع بـ»اغتصاب برلين» وكيف نَكَّلَ جيش الحلفاء المنتصر بأكثر من مليونَي امرأة ألمانيّة من خلال الاغتصاب والسحل في شوارع برلين؟

كذلك في التراجيديا السوريّة، خلال السنوات الـ10 الماضية، مجموعة من القصص لنساء عرفوا من الحرب كلّ وجوهها، وكان لهم دور وحضور ومآسٍ في شتّى مجالاتها، إلّا أنّ وجوههنّ لا تزال مجهولة ومُغيَّبة عن السرديّة الشائعة للحرب. أكثر من 23 ألف ضحيّة من النساء وآلاف الجريحات والمفقودات حتّى اليوم[1] (بحسب إحصاءات

(1) «تقرير لجنة التحقيق الدوليّة المُستقلّة المَعنيّة بالجمهوريّة العربيّة السوريّة،» **الأُمم المتّحدة مجلس حقوق الإنسان**، مُتاح على:
https://www.ohchr.org/AR/HRBodies/HRC/IICISyria/Pages/ReportoftheCommissionofInquirySyria.aspx

الأُمم المتّحدة ومنظّمات حقوقيّة)، هي الحصيلة غير النهائيّة، لمجموعة من القصص والنضالات والعذابات التي خاضتها (ولا تزال) النساء والمُراهقات السوريّات مرغمات خلال الأعوام المُنصرمة.

الفتيات والمُراهقات يشكِّلن نسبةً كبيرة من سكّان سوريا، إذ يشير عددٌ من التقارير الإحصائيّة المحليّة[2] والدوليّة[3]، إلى أنّ نسبة مَن أهمّ أقلّ من 15 عاماً كانوا يُشكِّلون في العام 2012 حوالى 36% من مجمل السكّان، وقد كانت هذه الفئة عرضة لدوّامات العنف والمآسي بشكلٍ عميق خلال الحرب، وخصوصاً الفتيات المُراهقات اللّواتي وجدْنَ النجاة واللّواتي لم ينجيْنَ، ممّن تعرَّضْنَ للقتل والضرب والتهجير والخطف والاغتصاب والتزويج الإجباريّ والاستغلال، وباقي أشكال العنف المعنويّ والجسديّ.

أصحاب القصّة

وهنا نوثّق قصّة لأُختَيْن مُراهقتَيْن، ننكأ من خلالهما خبايا الذاكرة الأنثويّة السوريّة، التي لم تفصِح عن نفسها بشكلٍ كاملٍ بعد، في ظلّ التهميش الذي يحلّ بها مع كلّ مرّة يعلو فيها دويّ المَدافع في هذا العالَم.

آية وماري التّاجر (مواليد 2003، 2002)، من قرية الصالحيّة في دير الزور، الريف الغربيّ لمدينة البوكمال، أختان لعائلة من الطبقة الاجتماعيّة الفقيرة، تضمّ 3 أخوات وأخوَين، كان الوالدان يعملان في الزراعة قبل اندلاع الحرب. وتعيش الفتاتان حاليّاً في لبنان، منطقة الشيّاح، عين الرمّانة.

حاليّاً، يعمل معظم أفراد العائلة، بمَن فيهم الأُخت آية، بأعمال يدويّة متفرّقة، بهدف تحصيل الحدّ الأدنى من متطلّبات الحياة الأساسيّة، من مَسكن ومَأكل ومَلبس. ومن المُفترض أن تنتقل العائلة إلى سوريا مرّة جديدة خلال الفترة المُقبلة، من غير الأب، بعد تعذّر الكثير من أمور الحياة في لبنان.

(2) «تعداد السكّان في الشريحة العمريّة من 0 ـ 14 (% من الإجمالي)»، **البنك الدوليّ**، متاح على:
https://data.albankaldawli.org/indicator/SP.POP.0014.TO.ZS.

(3) «التركيبة السكّانيّة،» **Heritage for Peace**، متاح على:
http://www.heritageforpeace.org/syria-country-information/geography/?lang=ar.

تـمّ استقصاء المعلومات الـواردة في النصّ عبر مُقابلتَين شخصيّتَيْن اثنتَين غير منظّمتَين، بحضور الأُختَيْن معاً، بموافقةٍ من الأهل (تصريح خطّيّ)، وذلك في إطار مهمّة تدوين مجموعة من القصص التي تخصّ تجارب فئة الشباب والمُراهقين في الحرب مع الأُختَين التاجر وغيرهما من الفتيات والفتيان، لمشروعٍ صحافيّ تقوم به الكاتبة، في ضوء عملها في المجال الإعلاميّ ـ التنمويّ، هدفه تسليطٌ الضوء على قصص «النجاة» لهذه الفئة التي تدفع الثمن الأكبر في الحرب.

خلال المُقابلات، أُتيح المجال أمام المُشاركات للإدلاء بتجربتهما بطريقة التداعي الحرّ، مِن دون أيّ محظورات، وتمّ تدوين المعلومات كافّةً الواردة بشكلٍ مباشر، ما عدا بعض الأسماء التابعة للأفراد أو التنظيمات الوارد ذكرها في القصّة حرصاً على خصوصيّة الفتيات وأمنهنّ، وقد تمّ الاقتباس عن شهادة الأُختَين (باللّهجة العاميّة) إلى الفصحى، فيما تمّ عرض أجزاء من القصّة بما يتناسب مع موضوع النصّ وحدود صلاحيّات النشر.

حرب ما قبل الحرب

في سنة 2014، كان عمر الأُختَيْن 11 و12 عاماً، نَضَجَتا بين زخّات الرصاص فأضحت الكبرى كأنّها ابنة ثلاثين. تقول الأخت الكبرى ماري: «شعرتُ أنّي كبرت مرّة واحدة، كنتُ طفلة وفجأة أصبحتُ عجوزاً. حدث ذلك فعلاً يوم أُجبرنا على مشاهدة قطع رأس شخص أعصى أوامر داعش، وكان علينا أن نتمالك أنفسنا ونتعامل مع حياتنا الجديدة. فأرواحنا الآن ملك لهؤلاء الرجال المُلثّمين، الذين لا يعرفون الرحمة ولا يضحكون أبداً».

في حياة هاتَيْن الطفلتَيْن، تشابكت خيوط التقاليد والأعراف الاجتماعيّة مع الواقع السياسيّ والعسكريّ الجديد، ففُرِض عليهما حِصارٌ مُطبق، في قلب حصار آخر كان يفرضه مقاتلو «داعش» على القرية التي تقع ضمن الريف الغربيّ لمدينة البوكمال الشرقيّة.

قبل اندلاع الحرب في سوريا في العام 2011، لم تكُن الظروف الاجتماعيّة بأفضل أحوالها بالنسبة إلى النساء. مجموعة كبيرة من الأعراف والتقاليد قيَّدت الذات الأنثويّة بمفاهيم وأدوار محدودة، يُمكن اختزالها جميعاً بكلمة «عيب». وهكذا مُنِعت الأُختان ماري وآية من اللّعب مع ابن جيرانهما المُفضَّل، مع بداية العام 2012، لِتُجرَّدا لاحقاً من متع وحقوق أخرى مع اشتداد المعارك في سوريا وسيطرة المسلَّحين على القرية.

«في الوقت الذي كان فيه الذكور يلعبون بحريّة كاملة، وبألعاب مسلِّية، بعيداً عن المنزل، بين الأشجار وقرب الفرات، يركضون ويتسلّقون ويقفزون، كانت القيود تزاد عليّ وعلى أختي يوماً بعد يوم وعاماً بعد عام، فهناك الكثير من الأشياء التي يمنعها «العَيب»، والتي تظهر في حياة النساء، من دون أن ندريَ مصدرَها، ولكنّنا مُجبرات على الطّاعة». كنّا نشعر بأنّنا لا نمتلك من أنفسنا شيئاً، تقول ماري. فالمُراهقات في الثقافة السوريّة السائدة، يكبرنَ بعدد «العيب» الذي يغزو حياتهنّ، وليس بعدد السنوات في أعمارهنّ.

وتروي الأخت الصغرى، أنّها في العام 2010، سمعت أحد أفراد العائلة يُوبِّخ زوجته لأنّها طالبته بالسماح لابنتها بإكمال تعليمها الأساسيّ، فأصبح لديها قلق كبير بأنّ يوماً ما سيأتي دورُها، وسيخرجونها من التعليم، وهكذا بدلاً من أن تحلِّق بأفكارها ومخيّلتها الطفوليّة، أضحت قلقة ومضطربة من أجل دراستها، ولم يكُن عمرُها قد تجاوز السنوات السبع.

تلك الحرب الطاحنة، التي خاضتها فتيات ومُراهقات كثيرات في سوريا، قبل اندلاع الأزمة، أضعفتهنّ وجَعلت منهنّ أهدافاً سهلة لأعمال العنف والاستغلال التي جاءت بعد ذلك في العام 2011، والتي كانت جزءاً من التحضير للحرب بكلّ بشاعتها.

وجهاً لوجه مع الموت

مع وقوع القرية تحت سيطرة تنظيم داعش، دَخلت أحكامٌ جديدة على حياة الناس، رجالاً ونساءً، لكنّ النساء، وخصوصاً الفتيات المُراهقات، تعرَّضْنَ لمُعاناةٍ مُضاعفة، كان بعضها يجري تحت لحاف اللّيل، حيث يتمّ اختطاف الفتيات واغتصابهنّ لإجبارهنّ على دخول دائرةٍ من الاستغلال والضعف، ليكُنّ في أفضل الحالات، راضخات للأمر الواقع.

هذا الوضع فَرَضَ قيوداً وإجراءاتٍ إضافيّة على الأُختَين، فأصبح خروجهما من المنزل حُلماً. أمّا البُرقع الصغير، التي خاطته أمّهما فأصبح الهويّة الوحيدة لهما. مساحة صغيرة من القماش مَنعت عنهما كلّ أشكال التواصُل مع العالَم الخارجيّ، خوفاً عليهما من الاختطاف وتحضيراً لهما لأدوارٍ جديدة، أدوار الزوجات المُطيعات التّابعات للكيان الذكريّ الصاخب.

مع اشتداد المُعاناة، مع كلّ معركة يذهب فيها الرجال ولا يعودون، مع كلّ مُحاكَمة ميدانيّة، يُجبر أهل البلدة على حضورها، بكلّ تفاصيلها المُرعبة، لم تَعُد الحياة مُمكنة حتّى لأكثر العائلات التزاماً بالعادات والتقاليد! فما أضحى مفروضاً وشائعاً مع عناصر التنظيم الإرهابيّ، لم ينجح بأن يُصبح الواقع والتراث الجديد! والنساء اللّواتي تمّ التعويل عليهنّ لإخضاعهنّ وترويضهنّ بالمطلق، وعلى الرّغم من كلّ الانكسارات، خبّأن في جيوب جلابيبهنّ رغبةً عارمة في الخروج من ذاك الجحيم.

تقول الأخت الكبرى ماري: «كنتُ أعتقد أنّ أمّي سترضى بما يفرضه علينا الدواعش، فهي لطالما كانت متشدِّدة وحريصة. إنّما تفاجأتُ أنّها في كثير من الأيّام، كانت تتحدّث إلينا، على وجبة كسرات الخبز واللّبن التي لم نجد غيرها في كثير من الأحيان، عن خوفها، وبحثها عن سبيلٍ للخروج من القرية، وخصوصاً مع تهديد أبي لمرّات عديدة، من قبل التنظيم، لأسباب لم نكُن نعرفها».

وتضيف: «في أحد الأيّام، دقَّ مسلّحون الباب، وتحدّثوا إلى أبي، تخايلتُ يومها وأنا مسمّرة في زاوية غرفة الجلوس، أنّهم هنا ليأخذوني، لا أعرف كم استغرقني الوقت في التفكير، ولكنّني اتّخذتُ قراراً حاسماً بقتل نفسي، كي أوفِّر عليّ وعلى الآخرين المأساة التي حدثت مع ابنة جيراننا. لم أكُن أعرف كيف، فكّرتُ لأيّام، وحين فاتحتُ أختي الصغرى بالأمر، باحت بذلك لأمّي، ولكنّ أمي اكتفت بنظرة عميقة، لا أعرف تفسيرها، حزن أم غضب، أمّا أبي فاكتفى بنظرة الانكسار والعجز».

عقب ذلك بأسابيع، أَقبلت العائلة على مُخاطَرةٍ كبيرة، قد يكون ثمنها أرواحهم، رحلة في الصحراء هرباً من جحيم الحياة التي يعيشونها. فكان عليهم التحضُّر إمّا للنجاة أو للموت في آنٍ، فكِلا الاحتمالَيْن قائمَيْن، وكلاهما على حدّ تعبير الأُختَين: كان «خلاصاً»، ولكنّ فشل عائلات أخرى بالهرب، تَرَكَ خوفاً واضطراباً في النفوس، وخصوصاً بعدما سمع الجميع بمصير تلك العائلات، وسحْلِ جثثهم على الملأ.

بعد تحضير رسائل الوداع للأقارب، الزوّادة، والأوراق الثبوتيّة في ساعات قليلة، جاء وقت الجسد الأنثويّ. لساعات أطول جَلستِ الأم تلفّ الأقمشة بإحكام على جسد ماري وآية، ففي حال موتهما في الصحراء، لا تنكشّف الجثّتان للغرباء العابرين، ولا للمُقاتلين المُرابطين في الكمائن، وهنا تتحدّث الأختان عن فكرة راودت كلّاً منهما، وهي أنّ تلك

الهويّة الأنثويّة المُحاطة بالذنب والمَخاوف، لا تنتهي في الأرض، بل تُلاحق أجسادهنّ إلى ما بعد الموت، وهنا تقول الأخت الصغرى آية: «صرتُ أتخايل أنّ مَن سيُحاسِب أرواحنا في السماء ليس الله، إنّما وجوهٌ لأقارب وأشخاص ومقاتلين رأيتها يوماً في القرية»، جحيم «الآخرين» كان أشدّ وطأة على الأختين مِن أيّ جحيم آخر.

نجحت العائلة في التسلُّل ليلاً من القرية، ساروا طويلاً، وخافوا كثيراً، وعندما وصلوا قلب الصحراء، كان الحرّ والجوع، أسهل ما يُمكن مواجهته، مُقارَنةً بالسيناريوهات المتوقَّعة في ظلّ وجود العديد من الكمائن والفصائل والجهات التي قد تُلقي القبض على العائلة المتسلِّلة.

انتهى المطاف بالعائلة مرميَّة تحت شجرة، والأمّ تعاني من المرض والتعب، ليتبيَّن لاحقاً أنّها كانت حاملاً، أمّا ماري وآية، فكانتا تُفكِّران بنفسيهما، بذلك الجسد المُخيف، الذي لا يريده أحد، ويرغب الجميع بالسيطرة عليه! تبخّرت طفولة الأُختان ومُراهقتهما مع حرّ الصحراء، وحين تمكَّنت العائلة من بلوغِ تجمُّعٍ للناس، أوّل ما خطر ببالهما ليس الماء ولا الطعام ولا المَسكن، بل سؤال واحد: «هل سيقوم هؤلاء باغتصابنا؟»، ليتبيّن لاحقاً أنّ هؤلاء الأشخاص هُم تنظيم كرديّ، احتجز العائلة لفترة، ومن ثمّ أَطلق سراحها، لتتمكّن لاحقاً من بلوغ دمشق، وهناك، في ظلّ كثافة النزوح وصعوبة الحال، لم تَجِد العائلةُ مأوىً مُستداماً، فاتّخذ الأبوان القرارَ بالعبور إلى لبنان.

عبر طريقٍ غير شرعيّ، وصلت العائلة إلى لبنان، وفي الأيّام الأولى مَكثت في المخيَّمات، وهناك بقوا لمدّة شهور، من دون أن يجدوا عملاً أو أماناً، ومن ثمّ جاؤوا بيروت. كان ذلك في العام 2016. في بيروت، في غرفةٍ صغيرة، في حيٍّ شعبي، بدأت العائلة تستجمع قواها، وكانت آية وماري قد دخلتا مرحلةً عمريّة جديدة، أصبحتا ناضجات تفكِّران بقضايا كبيرة، وتُحاولان مساعدة أبويهما في إيجاد حلولٍ وفُرص عملٍ ومُساعداتٍ للعائلة، من غير أن تعرفا شيئاً واحداً عن جسدَيهما.

وعن ذلك تقول الأختان: «نشعر بأنّنا في الأربعين والخمسين من عمرينا، فأحلام الطفولة ومشاعرها اختفت، تلاشت مع كلّ فكرة مُخيفة اجتاحتنا في أثناء حياتنا في القرية، أو خلال طريق الهروب، ولكنْ على الرّغم من ذلك، لم نكُن نعرف شيئاً عن

الأنوثة، عن كلّ تلك المخاوف والمحظورات، عن كلّ تلك الأشياء التي دفعت بوالدتنا للقول: يا ليتكم كنتوا شباب وريّحتوني».

بعد مدّة، التحقت العائلة ببرنامج تمكين وتأهيل مع إحدى المنظّمات الإنسانيّة، وهناك ظهرت للأُختَين احتمالاتٌ أخرى، غير الذنب والقلق والاضطراب وكره الكيان الأنثويّ. لاحقاً، تمكّنت آية من الالتحاق مجدّداً بالمدرسة وتقديم طلب حرّ لامتحانات المرحلة المتوسِّطة الرسميّة. أمّا ماري، فبدأت تتعلّم مهارات الكمبيوتر، وتمكّنت مع والدتها، بالالتحاق ببرنامج لإنتاج الحلى والصناعات اليدويّة، التي أصبحت لاحقاً مصدر رزق واستقرار للعائلة، والجسد الذي كان لعنة، أصبح نعمة وسنداً.

تقول ماري: «تعلّمت من الحياة، أنّ الأنوثة والذكورة بريئتان من كلّ الرعب الذي نعيشه، بل الظروف والتقاليد هي التي تصنع أفكاراً وأنماطاً، يعتقد الذين لم يخرجوا منها قط، أنّها هي الحالة الطبيعيّة للإنسان»، وتضيف: «كنتُ أفكِّر أنّ الحرب هي شأنٌ خاصّ بالرجال، ولكنّي اليوم أعرف، أنّ النساء هُم أكبر وأهمّ عنصر في الحرب، وأحياناً أتمنّى لو أنّي لم أكُن خائفة ومكسورة كما كنتُ في سوريا، لكنتُ قاتلت داعش. ولكنّهم أخافونا حتّى لا نفعل ذلك، وبالتالي يسيطرون على الناس».

حاليّاً، تُكمل آية دراستها، فيما تزوّجت ماري ابن أحد أقربائها، وتقول إنّها ستُربّي بناتٍ وصبياناً أقوياء وغير مكسورين، قادرين على إخماد الحرب وليس على إشعالها، مؤمنين بقوّة الكيان الأنثويّ لتحصين المُجتمع، وليس إضعافه.

عن حروب لم تُغادرنا

زينب خليل

عندما قرَّر والداي مغادرة القرية في أواخر سبعينيّات القرن الماضي نحو بيروت، لم يظنّا أنّ ذلك القرار الذي كان موقَّتاً سيتحوّل إلى إقامةٍ دائمة تُشكِّل بدايةً لحياةٍ لن تُشبه ما سبقها. والداي اللّذان وُلدا وكبرا في قرية حدوديّة في أقصى الجنوب اللّبنانيّ مع فلسطين المحتلّة لم يعرفا عن بيروت الّا القليل. كانت حيفا أقرب إليهما من عاصمة بلدهما. هنا في هذه البقعة الجغرافيّة المَنسيّة من البلاد، حيث المساحات ممتدّة ومُتداخلة مع فلسطين، عمل السكّان في الزراعة. والزراعة شاقّة على ما تصف والدتي وكان لأيدي النساء فيها باع طويل. يبدأ يومهنّ قبل بزوغ الشمس وينتهي مع أعمالٍ منزليّة لا تقلّ بدورها مشقّة عن العمل الزراعيّ والاهتمام بالطيور والمواشي.

في تلك الحقبة الزمنيّة لم تكُن الكهرباء قد وصلت بعد ولا حتّى المياه توافرت في المنازل. في تماهٍ تامّ مع الطبيعة، ابتكر سكّانُ القرى طُرُقَهم لتأمين المَوارِد. كانت مياه المُتساقطات تُجمع في آبار ومياه الشرب تُحضَّر من نبعٍ في أقصى القرية. أمّا غسيل الثياب والأواني فقد خُصّصت له النساء يومَين أو ثلاثة في الأسبوع، يذهبْنَ إلى ذلك النبع حيث يُشعلْنَ موقدة حطب ويتساعدْنَ في ما بينهنّ.

كانت تلك الحياة على بساطتها ومشقّتها لتستمرّ، وربّما لم يكُن هناك من سببٍ للمغادرة إلّا لأولئك الذين يرغبون بالمغامرة واكتشاف أسلوب عَيش مختلف خلف القرى. لكنّ ظهور الكيان العبريّ في مُحاذاة القرية سيقلب حياة ويُغيِّر مصائر. فجأة دخلت مفردات الحرب إلى يوميّات السكّان وصارت هناك حدودٌ فاصلة سيُمنع الاقتراب منها والأراضي المُتداخلة لن تعود كذلك.

أكثر من ذلك، خسر كثيرون ومعهم والدي أراضي كثيرة قرّر المُحتلّ ضمّها إلى كيانه في غفلة عن الدولة اللّبنانيّة، التي لم تكُن تعِر اهتماماً إلى ما يجري عند الحدود من عمليّات قضْمٍ لأراضٍ أو قصف واعتداءات عسكريّة شبه يوميّة.

كانت هذه البلاد متروكة لمصيرها. تُخبرنا والدتي، أنّه في بداية سبعينيّات القرن الماضي، أغارت الطائرات المُعادية على منزل أحد أعمامي. على سطح المنزل كان يوجد غرفة صغيرة أشبه بالمقهى يلتقي فيها شبّان القرية للتسامر ولتمضية الوقت. استشهدَ في القصف ثلاثة شبّان وسقط عشرات الجرحى. أَرسلت الحكومة وفداً عسكريّاً لمُعايَنة الحادث. تقول والدتي كان الضابط يحمل دفتراً وقلماً لتدوين شهادات الناجين، فتصدّى له أحد قبضايات البلدة وطلب منه تأمين مقوِّمات الحماية والصمود بدلاً من إحصاء الأضرار.

في ذلك اليوم سار أهل القرية في تظاهرة إلى سراي بنت جبيل للاحتجاج على تخلّي السلطة اللّبنانيّة عن دورها في تأمين الحماية لهم.

ستتكرّر حوادث مشابهة وتتدهور الأوضاع أكثر وتتحوّل الحياة الآمنة إلى قلقٍ مستمرٍّ سيدفع السكّان إلى المغادرة شيئاً فشيئاً.

هكذا قرّر والداي ترك القرية ومعهما أنا الطفلة التي لم تكُن قد تجاوزت العامَيْن. في أحد أزقّة العاصمة ستبدأ أولى محاولات التعرُّف إلى المدينة والدخول في نسيجها الاجتماعيّ. صداقات قليلة مع «بيارتة» الحيّ ستنشأ تباعاً وستنجح في فكّ العزلة عن المُحيط. إذ لم يكُن هيِّناً على مَن عاش في بيئةٍ يعرف أهلُها بعضَهم أن يُصادق الأمكنة الجديدة وناسها. لكنْ مع مرور الأيّام ستتلاشى رهبة المدينة وستعقد العائلة معها صلحاً يُهوِّن وجعَ التهجير. كنّا نوهم أنفسَنا بأنّ الوجود هنا موقَّت بانتظار تحسُّن الأوضاع جنوباً فنعود من حيث أَتينا. وعليه سيظلّ الجنوب حاضراً في كلّ تفصيلٍ من يوميّاتنا. من اللّكنة

التي لم تتخلّ عنها والدتي يوماً ولا تزال، إلى الصفة التي ستُلازمنا طويلاً ونُعرَّف بها «العيلة الجنوبيّة». نحن لسنا «بيارتة»، لم نتجرّأ على الانتماء للمدينة على الرّغم مِن أنّ القرية لن تعود يوماً مكان إقامة لأيّ فرد من أفراد العائلة التي سيكبر عددها ويتضاعف في بيروت.

لم تتحسّن الأحوال في الجنوب وكانت الأخبار التي تَرِدُ من هناك تشي بأنّ النزوحَ ستطول سنواته ولم تكُن بيروت أفضل حالاً. فالمدينة التي كانت تنزلق بجنون في جحيم الحرب الأهليّة لم تعُد هي أيضاً مكاناً آمناً. انقسمت بيروت على نفسها والمبنى حيث نقيم كان يقع عند خطوط التَّماس الفاصلة بين البيروتَيْن. نحن في الشطر الغربيّ ووالدي يعمل في الشطر الشرقيّ. أذكر بكاء والدتي وقلقها اليوميّ مع كلّ جولةِ تقاتُلٍ خَوفاً على والدي.

ففي الثمانينيّات كان مسلسل رعب اسمه الخطف على الهويّة قد بدأ. إنْ لم تُقتَل بقذيفة أو رصاصة قنّاص قد تُخطَف عند حاجزٍ ميليشياويّ، وتتحوّل إلى واحدٍ من عداد آلاف المفقودين. كانت والدتي تقول إنّ الموت قتلاً في الحرب هو عندها أهون من مصيرٍ مُعلَّق بين يدي خاطف. لعلّها كانت تتنبّأ بما تُخفيه الأيّام لها.

لكنَّ الحياة ستستمرّ في تحايُلٍ يوميّ على الحرب. نذهب إلى المدرسة صباحاً ثمّ نَجد أنفسنا على الطريق إلى البيت، أرجلنا معلَّقة في الهواء تُسابِق سرعة القذائف. نُعيد الكرّة في اليوم التالي، فالمدرسة لم تُغلِق أبوابها. كان ذلك فسحة الحياة الوحيدة وسط الجنون.

في العام 1982 وصل الاحتلال الإسرائيليّ إلى بيروت. وقبل أن يُحكِم الإقفالَ على العاصمة سيحملنا والدي في طريق عودةٍ مُعاكِسة. سنُعيد اجتياز الطريق الساحليّ الذي عبرنا عليه يوماً هرباً من الاحتلال في القرية. رأى والدي أنّ الموت في الجنوب «أهون ألف مرّة من كلمة مجهول الهويّة، هناك على الأقلّ سنجد مَن يسأل عن مصيرنا». في العادة يخاف الناس من المصائر المجهولة.

لن تطول عودتنا إلى القرية فما إنْ بدأ الاحتلال بالانسحاب من بيروت حتّى انطلقنا إليها. خاف والدي أن يُعزَل الجنوب ونُصبح عالقين تحت نار المُحتَلّ وعُملائه.

وهكذا عُدنا إلى بيروت وأعادت والدتي ثيابنا إلى مكانها في الخزانة. لم يكُن توضيب الثياب تفصيلاً عابراً في الذاكرة. كنّا عندما نرى والدتي تُسارِع إلى سحب «الشنطة» من الخزانة وتبدأ بوضع الثياب فيها، نَعلم أنّ شيئاً ما يحدث وأنّ مَوسم نزوحٍ آخر قد حان.

في جولات الاقتتال الكثيرة التي مرّت علينا، تعلّمنا التحايُل على الموت. المذياع في المنزل لا يسكت. هو دليل والدتي لتقصّي الأخبار كي تُقرِّر إرسالنا من عدمه إلى المدرسة. عند اشتداد القصف كنّا نُحشَر في واحدة من زوايا البيت. تلك الزاوية أَجْمَعَ والداي على أنّها الأكثر أمناً لكونها بعيدة عن النوافذ الزجاجيّة أو عن الباب ولأنّها تلتصق بحائط المبنى المُجاوِر. هذه زاوية مثاليّة يُمكن أن تقينا شظايا القذائف التي كانت تنهمر كالمطر ذات شباط بارد.

حينما يقترب صوت القصف ويهتزّ المبنى فنخاله سيقع على رؤوسنا، كنا نترك زاويتنا الآمنة إلى «بيت الدَّرج» أو إلى الملجأ. والأخير منحه الجيران هذا التوصيف على الرّغم مِن أنّه لم يكُن مُهيَّئاً ليكون كذلك. كان مستودعاً تتوزّع فيه آلاتٌ ضخمة لا يُمكن أن تتزحزح من مكانها. فهو لم يكُن مُجهَّزاً لاستقبال هذا العدد من الأرواح الباحثة عن فُرصتها للنجاة. كان الهاربون من الموت يتكدّسون بين تلك الكتل الحديديّة الهائلة، تجلس كلّ عائلة على بساط أو غطاء قديم وتُضيء شمعة أمامها حتّى يُضاء المكان. من وقتٍ إلى آخر، كان يخرج رجلٌ من الملجأ لتفقُّد آثار القصف ثمّ يعود ليُخبر عن مُشاهداته.

يوم، يومان وسيتعب المُقاتلون ويعلنون عن استراحة تسمح لنا بالخروج من جوف المبنى. مع أولى ساعاتِ فجرٍ هادئٍ بحذر، سيحمل الكثير من جيراننا أمتعتهم ويتركون الحيّ بحثاً عن مكانٍ أكثر أمناً. نحن هذه المرّة «لا مكان نذهب إليه» يقول والدي لجارنا البيروتيّ، سأله إن كنّا سنقصد الجنوب هرباً من الاقتتال المتفلِّت في بيروت.

بين نارَي الاحتلال في الجنوب وجنون الحرب في بيروت، فضّل والدي البقاء. كانت أخبار الجنوب مُقلقة ما جعلته يُحجم عن الذهاب، وخصوصاً أنّ لديه عملاً مياوماً. وكلّ يوم ينقطع فيه عن العمل يعني انقطاع لقمة العَيش. لكنّ والدي لم يكُن يعلم أنّ الحرب قد وصلت إلى باب منزله، هو الذي لم يحمل السلاح يوماً. كان يعتقد أنّه وَجَدَ الأمان في زاوية منزله وداخل حيِّه البيروتيّ «المُنزوي».

ذات مساءٍ ماطِر من مساءات شباط، بينما كان والدي وبعض الجيران يتفقّدون الحيّ بعد سماعِ دويٍّ قويّ، سقطت قذيفة على حيِّنا. كان عصفها هائلاً تطاير معه الزجاج والحجارة من كلّ صوب، وغطّى علينا غبار كثيف أعاقنا عن التحرّك خطوة واحدة.

انعدمت الرؤية أمامنا وعلق كلٌّ منّا في عتمة مكانه. بدأت والدتي بمُناداتنا واحداً واحداً. أتذكّر رعب صريخها وأنفاس صمتها وهي تتنظر أن تسمع صوتَ مَن نادت اسمه أو اسمها. أخال تلك الثواني القليلة سنوات انتظار ينقطع فيها قلبُها عن الخفقان قبل أن تعود الحياة إليه عند سماع الإجابة. بعد أن اطمأنّت إلى نجاتنا طلبت منّا الاقتراب منها، لحقنا الصوت لأنّ الرؤية لم تكُن بعد مُمكنة. أمسكتُ طرف ثوبها وفَعَلَ كلٌّ واحد منّا الشيء نفسه مع مَن يسير أمامه. كنّا أربعة أطفال، أكبرهم أنا لم أتجاوز الثامنة من عمري. سرنا خلفها إلى خارج البيت الذي يقع في الطابق الأرضي من المبنى. ما إن تجاوزنا عتبة الدار حتّى بدأت مشاهد الموت بملاقاتنا. كانت ريما، ابنة جيراننا أوّل لقاء لي مع الموت. ربّما في تلك اللّحظة، لم أعرف أنّي عبرتُ أمام جثة لكنّ الدماء الكثيرة التي خرجت من رأسها أخافتني كثيراً والأطفال عادة يهابون منظر الدماء ويتوجَّسون منه خطراً. أمرتني والدتي بأن أُتابع سيري وألّا أنظر إليها وأن أركض بسرعة نحو بيت الدرج. المسافة من باب منزلنا إلى هناك لا تتعدّى الخمسة أمتار. لكنّها في تلك اللّيلة الصعبة كانت مساراً شاقّاً أعبره ولعلّي ما زلتُ إلى اليوم عالقة في تلك الأمتار القليلة. مع كلّ خطوة كنتُ أسمع وقع أقدامي على الزجاج المحطَّم، ثمّ تعثّرت بعائق. لم يكُن زجاجاً ولا إسمَنْتاً، كان شيئاً طريّاً ولكن حينها لم أكُن لأُمَيِّز جثث الموتى.

لم تُرافقنا أمّي إلى بيت الدَّرج بل اتَّجهت مسرعة صوب مدخل المبنى ومنه إلى الشارع الصغير. كانت تبحث عن والدي ووجدته. كانت سيّارات الإسعاف قد بدأت بالوصول. علمَتْ أمّي حينها أنّ والدي قُتل «سحبته بيدي، لم يتحرّك» قالت لجارتنا التي جاءت لمُساندتها. بقيت تردِّد تلك العبارة في انتظار أن يأتينا خبر من المستشفى. لم تستطع أمّي مرافقة سيّارة الإسعاف لأنّها لم تستطع أن تتركنا لوحدنا في المنزل. لكنْ كان على أحدٍ ما أن يُعلم العائلة بما حصل. لنا خال يُقيم في بيروت. طلبت والدتي من جارنا أن يذهب إليه وطلبت منّي مرافقته لأدلّه على الطريق.

كان ليل بيروت ماطراً وبارداً. أمسك الرجلُ بيدي ومشينا في ظلام دامس لم يُضِئه إلّا أضواء القذائف المتفجِّرة.. لا أحدَ يسير في الطريق، فقط نحن وسيّارة إسعاف كانت سرعتها تُسابق الزمن لعلّها تتمكّن من إنقاذ أرواحٍ التهمتها الحرب. التقينا بمسلّحين عبروا أمامنا، لم يوقفوا جارنا لسؤاله عن خروجه في ذلك الوقت. لم أشعر بالخوف منهم قدر

خوفي من أن أتوه عن منزل خالي وأن لا أنجح في الوصول. كنتُ أتوقّف مرّة بعد مرّة عن السير كي أتمكّن من تذكُّر الطريق نحو وجهتنا الصحيحة. بعد محاولاتٍ عدّة تمكّنتُ من إيصال جارنا إلى بيت خالي. لا أعرف ماذا أخبرته عندما سألني مُستغرباً عن عدم مُرافقة والدي. أعتقد أنّ جارنا أكمل له سرد الفاجعة. رجعتُ إلى البيت وكانت أمّي قد استسلمت للبكاء لأنّها عرفت أنّ سنوات من الحزن تنتظرها.

ساعات ووجدنا أنفسنا مرّة جديدة على الطريق الساحليّ مع جثّة والدي الذي جاء بيروت بحثاً عن أمان وعاد منها قتيلاً.

يصعب فهم الموت في عمر الثامنة. مهما أُخبرت عنه لن يتمكّن عقلك الصغير مِن استيعاب معناه. ما ستكتشفه لاحقاً أنّ حياتك لم تعُد تُشبه ما كانت عليه وأنّك لم تتمكّن من رؤية والدك مجدَّداً حينما تسأل مراراً وتكراراً عن عودته. لم تكُن والدتي الغارقة في حزنٍ دائم لتُجيبَ عن أسئلتنا. قالت القريبات والجارات إنّه أصبح في السماء. لذا لطالما نظرتُ نحو الأعلى علّي أراه أو لعلّه يمدّ يده ملوِّحاً. وكنتُ أسأل نفسي كثيراً لما سيصعد للعيش «فوق» ويتركنا هنا؟ لماذا لم يأخذنا معه؟ عاشت معي تلك الأسئلة لأنّي لم أجرؤ على سؤال والدتي التي أَخذها الحزن منّا. لاحقاً اعترفَتْ لي أنّها حاولت إنهاء حياتها أكثر من مرّة ولم تتجرّأ على اتِّخاذ الخطوة الأخيرة. كانت تصعد إلى سطح منزل والدَيها في القرية وتقترب من الحافّة كي تُلقي بنفسِها إلى الأسفل. لكنْ في كلّ مرّة كانت تشعر بيَدٍ تشدّها إلى الخلف أو تسمع صوتاً يُذكِّرها بأنّ لديها أربعة أطفال وأنّ الخامس في بطنها.

في القرية سنُقيم أشهراً قبل أن تُقرِّر والدتي العودة بنا إلى بيروت. أُجبرت على العودة خوفاً مِن أن يعمد صاحب المنزل على طردنا منه بسبب تأخُّرنا عن دفع بدلات الإيجار أو أن يقوم المسلَّحون باحتلاله. احتلال المنازل الخالية من سكّانها كان شائعاً في بيروت في ذلك الزمن.

عادت والدتي إلى بيروت ومعها نصف العائلة. أمّا نصفها الآخر، أنا وأخي فبقينا في القرية. هكذا ارتأى الجميع أنّه الحلّ الأفضل، فوالدتي لن تتمكّن لوحدها من تدبير أمورنا جميعاً. في اليوم الذي تَرَكَتْنا هربتُ إلى سطح البيت وبكيتُ كثيراً. كنتُ أبكي وأنظر إلى السماء لعلّ والدي يطلّ منها ويخبرني عن سبب غيابه وعن سبب رحيلها.

ستمرّ أشهر طويلة قبل أن يلتئم شمل العائلة. عدتُ أخي وأنا إلى بيروت لنجدَ أنّ طفلاً صغيراً قد دخل حياتنا. كان فرحاً وسط الحزن الكبير. فمظاهر الحداد طبعت كلّ طفولتنا، لم تخفِ أمّي حزنها ولم تتخلَّ عن ارتداء السواد لسنوات وسنوات. لم نكُن نحتفل بالأعياد ولم نكُن نُشارك في أيّ مناسبة اجتماعيّة سعيدة، حتّى جهاز التلفزيون نُقل من مكانه في وسط الغرفة ليستقرّ سنوات في قعر الخزانة. كنّا إذا رغبنا في مشاهدة التلفزيون نتحايل للذهاب إلى منزل خالي أو جيراننا لعلّنا نحظى بساعة مشاهدة.

الحزن والخوف من خساراتٍ إضافيّة قد تحملها لنا الحرب جعلنا نعيش لسنوات في عزلة تامّة عن كلّ أسباب الفرح. ولأنّي كنتُ الأكبر سنّاً بين إخوتي وأخواتي فقد نلتُ النصيبَ الأكبر من تلك العزلة ومن مقاسمة والدتي في تحمُّل أعباء الحياة. وهي أعباء تصبح أشدَّ ثقلاً في زمن الحرب. صحيح أنّ الحرب جعلتني أشدَّ صلابةً حينما دفعتني باكراً لأواجه وحيدة تحدِّيات الحياة. لكن في الواقع، لم أكُن أملك ترفَ الاختيار كي أقرِّر إنْ كنتُ أريد ذلك. حينما كنتُ أشعر بالخوف أو القلق كنتُ أخفِّف عنّي بالقول إنّ كلّ ما سيأتي لن يكون أسوأ ممّا حصل.

مع تقدُّم السنوات صرتُ أجد بعض الفرح في المدرسة. لكنّ ارتيادها أيضاً لم يكُن ثابتاً بل كان مسلَّحو المليشيّات المُتحاربة يتحكّمون في تحديد روزنامة الحضور والتعطيل. يهدأ الاقتتال فنعود إلى مقاعدنا، يشتعل فنلزم منازلنا. وهكذا كان التعليم يسير في لعبة كرٍّ وفرٍّ مع المُتقاتلين ويحدث أن ترجع يوماً إلى مدرستكَ فتكتشف أنّ رفيقةً لكَ لن تعود. لا تحمل الحروب إلّا الفقدان. وذاكرة جيلنا نحن الذين ولدنا وكبرنا فيها لا تتوقّف عن إحصاء الخسارات.

في يوم دراسيٍّ سُرق من يوميّات الحرب، سيأتي الأستاذ محمّد ليفتح لنا باب غرفة معتمة لطالما سُردَت الحكايات حولها. كانت صديقتي تقول إنّ جِنّاً يسكن فيها وأخرى تتحدّث عن أفعى تنام خلف الخزانة الكبيرة. عندما هَمَّ أستاذنا بفتح الباب، حبسنا جميعاً الأنفس بانتظار أن يقفز ذلك الشيء، جنّاً كان أم أفعى.

لكنّ شيئاً من ذلك لن يحدث وستقفز أمام أعيننا رفوف مُمتلئة بالكُتب. كانت مكتبة ولكنّ أحداً لم يفتح بابها يوماً، ربّما لأنّ المُطالَعة كانت تَرَفاً في زمنٍ كنّا نسرق منه ساعة لتعلُّم قراءة الحَرْف وكِتابته.

صارت مكتبةُ المدرسة مكاني المفضَّل وعالَمي الساحر الذي يأخذني إلى حيث لا يستطيع واقعي تخيُّله. كان يحقّ لنا استعارة كتاب في الأسبوع ولكنّ ذلك لم يكُن ليُشبِعَ نَهمي، فصرتُ ألجأ إلى صديقاتي اللّواتي يَجدن في المُطالعة قصاصاً فأستعير ما بحوزتهنّ. أكثر من ذلك صرتُ أحدِّد لهنّ مسبقاً ما يخترنَ، فالكتاب سيحطّ في آخر المطاف بين يديَّ.

لكنّ تلك البهجة لن تستمرَّ طويلاً، ستشتعل جولةُ حربٍ جديدة وستغلق المدرسة أبوابها. بعد أن غادر كلُّ جيراننا في المبنى وصار حيُّنا موحشاً لم يتركه إلّا مَن لم يجد مكاناً يهرب إليه، شعرتْ والدتي بالخوف. فقرَّرت أن نلجأ إلى القرية. كنّا قد انقطعنا عن زيارتها لسنواتٍ لنَجِدَ أنفسَنا مجدَّداً في سيّارة أجرة جاءت لنقلنا إلى الجنوب. خرجنا من بيروت على وقع قصفٍ عنيف اضطرّ معه السائق للقيادة بسرعة جنونيّة حتّى يصل إلى الطريق السّاحليّ. ما إن أصبحت بيروت خلفنا حتّى استعدنا أنفاسَنا. لكنّ القلق سيعود مع كلّ حاجز عسكريّ سيُطالِعنا على الطريق. أمامنا حواجز عسكريّة عدّة قبل أن نصل نقطة المعبر. المعبر هو الذي يفصل القرى المحتلّة عن باقي الجنوب. انتظرنا طويلاً في السيّارة قبل أن تُفتح لنا البوّابة الحديديّة. طُلِب منّا أن نُفرِغ أرضاً كلّ محتويات حقائبنا وأن نتوجَّه إلى غرفة التحقيق. كانت والدتي قد أوصتنا بأن لا نُجيب عن أسئلة المحقِّق بأكثر من «ما بعرف»، أو أن نلتزم الصمت. في الغرفة، كانت تجلس سيّدة خلف مكتب وأمامها مجموعة من الأوراق، طَلبت بطاقة الهويّة وبَدأت بطرْح أسئلةٍ كثيرة عن سكننا في بيروت ومعارفنا ويوميّاتنا. بين إجابةٍ وأخرى كانت المُحقِّقة تُباغت والدتي بسؤالٍ عن فلان أو فلان من أبناء قريتنا المعروفين بنشاطهم السياسيّ المُناهض للاحتلال. لم تَجِد المُحقِّقة في والدتي صَيداً «مُخابراتيّاً» لذا بعد حوالى الساعة، سلّمتنا تصريحاً يسمح لنا بالعبور نحو «الشريط المُحتلّ».

دخلنا القرية بعد سنواتٍ من الغياب. لم تكُن تُشبه تلك التي بقيت عالقة في ذاكرتنا يوم وصلناها لدفنِ والدي قبل أكثر من ستّ سنوات. بَدَتْ مُغلَقة بشدّة على حالها وقد تَراجَعَ عددُ قاطنيها وغادرها معظم الأقارب والمَعارف. كنتُ قد بلغتُ الثانية عشرة، لم أَجِد من أتسلّى برفقته خلال إقامتي الموقَّتة في القرية. أمضينا معظم وقتنا في البيت، لا نخرج إلّا لزيارة ضريح والدي أو مَن بقي من الأقارب. كانت والدتي تخشى عملاء

الاحتلال، كما تخشى تسلُّل البضائع الإسرائيليّة إلى مائدتنا. كانت لائحة المحاذير التي أوصتنا بها تطول لحدِّ أصابتنا بالضّيق والتملْمُل. كنّا عندما نشتري السكاكر والعصائر نُطيل النظر إلى الكتابة على غلافها. نتذكَّر كلامَ والدتي عن العبريّة ذات الأحرف الغريبة التي لا تُشبِه الأحرف العربيّة ولا الأجنبيّة التي تعرَّفنا إليها في المدرسة.

على خلاف الفرحة التي رافقتنا عند دخولنا القرية، تحوّلَ مكوثنا فيها إلى إقامةٍ جبريّة. صرنا نُحصي الأيّام لنعود إلى بيروت. لذا ما إن هدأت الأوضاع الأمنيّة وبدا أنّ الحرب الأهليّة قد شارفت على نهايتها، حتّى انطلقنا في طريقِ العودة. كانت تلك الزيارة الأخيرة إلى القرية.

بعدها ستستقرّ أحوالنا في بيروت مع توقُّف أصوات القذائف. وستُصبح المدينة مكاننا النهائيّ الذي منه سننطلق نحو خياراتِ الحياة. لكنّ انقطاعنا القسريّ عن الجنوب، لم يُحوِّله إلى تفصيلٍ عابر. ظلّت أخباره تطغى على كلّ اهتماماتنا. الحروب هناك لم تتوقّف يوميّاتها. سنعيشها ولو عن بُعد، ولاسيّما خلال عدوانَي تمّوز (93) ونيسان (96). صحيح أنّنا لم نَترك منزلنا خلالهما لأنّ الحرب بقيت بعيدة عن بيروت، إلّا أنّ أخبارها أعادت إحياء كلّ الذكريات الأليمة. من سخرية القدر، مثَّلَ هذان العدوانان دَوراً مباشراً في حَثّي على اختيار الصحافة اختصاصاً جامعيّاً. كنتُ ساخطة وكان لديّ رغبة شديدة في الكتابة والتعبير عمّا يحدث. وهكذا حصل. دخلتُ كليّة الإعلام في الجامعة اللّبنانيّة مع انتهاء عدوان نيسان الذي شنّه الاحتلال الإسرائيليّ على لبنان عام ستّة وتسعين وتخرّجتُ مع انسحابه من الجنوب في العام ألفَين. بين تاريخَيْن حاسمَيْن على روزنامة الأحداث في لبنان، تشكّلت حياتي المهنيّة التي اتّكأت في جوانب عدّة على علاقتي مع الحرب. قد تكون حرب الألفَين وستّة، الوحيدة التي لم أَعشْها. كنتُ قد غادرتُ إلى فرنسا لإتمام الدِّراسات العليا حينما وقعَتْ. تقول والدتي إنّي «زمطْتُ منها». هل فعلاً «زمطتُ»؟ ربّما. أقول ذلك في كلّ مرّة، أقود سيّارتي برفقة أولادي الأربعة إلى قريتي الحدوديّة. وعندما أطلّ من شرفة منزلنا المُقابل لفلسطين المحتلّة، أقول لنفسي «لقد نجوتُ».

ذاكرة أمّي... ذاكرة ثورة لم تُكتب بعد

مريم بو زيد

في تجربة العمل على ذاكرة النساء والحرب (الثورة التحريريّة الجزائريّة) تمّ استجواب بعض مَنْ خضْنَ تجربة العمل الثوريّ والانخراط في الثورة التحريريّة. ففي مقابل الإشادة ببعضهنّ مثل الجميلات، في وسائل الإعلام والدِّراسات، لم تَجد تلك المُستجوَبات مَن يُسمِع صوتهنّ إلى أيّ جهة إعلاميّة أو سياسيّة للتعبير عن تضحياتهنّ ومدى مُعاناتهنّ وهنّ فتيات صغار... وفي سِنّ مُراهقتهنّ اخترنَ المُواجَهة المزدوجة، مُواجَهة المُستعمِر ومُواجَهة المُجتمع. وعلى الرّغم مِن كلّ ذلك كان لديهنّ الأمل في تحرُّرٍ حقيقيٍّ بعد الاستقلال. لكنّ التعتيم والتغييب ازداد، وبقيت «سلطة الأيقونات» هي المُتكرّرة والتي تطبع ثورة شعبيّة حقيقيّة... ازدادت الصدمات وازداد الإحباط لدى هؤلاء السيِّدات في كلّ مناسبات الحديث والاحتفال بالحرب التحريريّة.

أحاول في هذه الورقة نقْلَ أجزاءٍ من سيرة حياة والدتي باعتبارها شاهدة على ثورة «أَجحفت» في حقِّها. هي ابنة الرّابعة عشرة عاماً التي قرَّرت أن تنتفِضَ على واقعٍ استعماريٍّ مُزرٍ، فقرَّرت أن تحمل السِّلاح وتدافع عن كرامتها وكرامة وطنها. لكنّها اصطدمت بالمُجتمع التقليديّ وبعنف

ظروف تلك المرحلة. ما زالت تحكي تفاصيل عدم توقُّفها عن النضال حتّى الاستقلال. ما زالت تُناضِل من أجل اعتراف السلطات بتضحياتها وتضحيات كلّ منطقتها التي بقيت إلى ما بعد الاستقلال من مناطق الظلّ والظلمة. ذاكرة والدتي ذاكرة فولاذيّة وتفاصيل حكاياتها دقيقة وملوَّنة بألوان الطبيعة والطقس ومواسم الخضر والفواكه. هي شاهدة على ثقافة تلك الفترة غير البعيدة لكنّها مُهمَلة. تعرف تفاصيل اللِّباس والحُلى... وطقوس الزراعة والنسيج والبناء... تسجيلاتي معها لا تنتهي... وحكايتها لا تنضب...

مقدِّمة

تعود بداية الاهتمام بمُشارَكة النساء في الحرب التحريريّة (الثورة التحريريّة)، وتحديداً نساء الأرياف والمناطق المعزولة، إلى ما وجدته في أثناء بحوثي الأكاديميّة في مجال الأنثروبولوجيا؛ إذ، في كلّ مرّة، يبرز ويتشكّل ذلك الخيط القويّ الذي كان يجمع النساء، من مختلف مناطق البلاد، بالمُدن الوسطى والأحياء الشعبيّة، وبالقرى والأرياف، وحتّى الصحراء الكبرى منطقة تواجُد طوارق الجزائر. تنتظم ذاكرتهنّ بتاريخ الثورة، بطريقة أو بأخرى. ثورة أَحدثت تغييراتٍ على بعض المعايير والقِيَم الاجتماعيّة وقَلبت بعض الأنظمة والأنساق الاجتماعيّة والثقافيّة التي كانت سائدة. فكان كلّ شيءٍ يبدأ من ذلك الماضي القريب المسكون بالألم، ألم الحرب والمُعاناة والفقر والحاجة والذلّ... تبدأ سيرة حياة النساء، ممَّن عايشْنَ ووُلِدْنَ في تلك الفترة، بسيرة الحرب والثورة وما خلَّفته من مَجازر وتهجير وسجن ومُعاناةٍ يوميّة إلى أن جاءت «نعمة الاستقلال». مهما كانت إشكاليّة البحث، إنْ كان عن الاقتصاد غير الرسميّ، المُوازي، أو عن إشكاليّة الجسد المُنتِج، أو عن الطقوس واحتفالات الزّواج أو الموسيقى... أو عن أيّ موضوع كان، فلا بدّ أن يُترَك المجالُ واسعاً أمام الإدلاء بشهادات ومُعاينات وحكايات عن الثورة التحريريّة. حتّى وإن لم يكُن هاجسي كباحثة، مثل هذه الإشكاليّات، فإنّ حَجْم المُعطيات الأثنوغرافيّة، التي تتسلسل عن تلك الحياة الصعبة وتصوير خفقانها، جعل السؤال يكبر بداخلي عندما تُذكِّرني والدتي بالتسجيلات التي قمتُ بها مع صديقتها «خديجة». في كلّ مناسبة كانت تُذكِّرني بوعودي «ألم تكُن فكرتك وقتها أن تؤلّفي كِتاباً عنّا؟ لماذا تُماطِلين؟ لماذا لا تُبادرين بالكتابة عن هذه المنطقة ومُعاناتنا فيها وعن

شهدائنا الذين لا أثر لهم في متحف المُجاهِد والجيش؟ آهٍ لو كنتُ أقرأ وأكتب... لَما كنتُ تركتُ واقعةً إلّا وكتبتها وسجّلتها ولَكتبت للمسؤولين عن حَجْم مُعاناتنا... أراهم في مختلف القنوات يأتون ويتكلّمون، ويُقدِّمون شهاداتهم، كاذبة كانت أم صادقة، لكنّ شهاداتهم لا تُغطّي كلَّ تاريخ الثورة الشعبيّة التي شارك فيها حتّى الحيوانات.

ثورة على النِّظام الاجتماعيّ في أربعينيّات القرن الماضي

ثورة «قدّورة»[1]

أَسهمت العديد من العوامل الأُسريّة والاجتماعيّة والتاريخيّة، في أن تسرِيَ في عروق والدتي الثورة ضدّ الظلم، فضلاً عن العوامل الجسديّة. فبعد وفاة والدها في العام 1945، رفضت جدّتي السكن في بيت أسرتها الممتدّة، الجدّ والجدّة والأخوال وزوجاتهم، كما رفضت أن يأخذ إخوةُ زوجها أولادها ليعيشوا عندهم. كما رفضت رفضاً قاطعاً الزواج مرّة أخرى. رفضت أن يأخذ أحدٌ أملاكَ أولادها أو أن يتربّوا مكسوري الخاطر تحت «سيطرةٍ» ما أو سلطة غير سلطتها أو سلطة والدهم. كم كان ثمن ذلك باهظاً، لكنّها تحمّلت تبعاته. عاشت في بيتها العامر بالخيرات ممّا تركه زوجها وممّا اكتسبته من مجهودها وكدّها وتعبها. كانت ثورة اجتماعيّة غير مألوفة أن تعيش أرملة بعيدة عن سلطة باتريارکيّة تلجمها، لكنّها كانت امرأة بعشرة رجال أشدّاء، كانت لها الكلمة، ليس لأنّ كلمتها كانت مسموعة «بالفطرة»، بل لأنّها فَرضت نفسَها أيضاً بقوّتها وكانت تُعبِّر عمّا تشعر بأنّه حقٌّ ولو كان ذلك على رقبتها. لم تكُن تُجامِل. كلماتها توحي بفظاظةٍ كبيرة، وهي تصوِّب ما تراه خطأً، لكنْ بقلبٍ أبيض لا يحقد أبداً وهذا ما كان يجعلها محبوبة، وكان ما تقوله يُصبح بسرعة مضربَ أمثال. عاشت برفقة أولادها تحمي مصالحهم وتوفِّر الخيرات التي تعمّ على الجميع. لم تكُن تمنع خيرات الله عن أحد. عاش مَن عاش ببذخ من كَرمَها من أهلها، فكانت تتصدّق وتُزكّي قبل أن تبرد «النعمة» من حوافر الخيل التي كانت تدرس القمح في البيادر. كان بيتُها عامراً بخوابي الزيت العملاقة، وجرار العسل و«كوافي»[2]

(1) كان اسم جدّتي، وهو تأنيث لاسم جدّها «قدّور» ووالدها سعيد..وذلك تقديراً لها ولقوّتها.

(2) آكوفي، وجمعه «إكوفان» عبارة عن أوعية طينيّة كبيرة، مثل الجرار الكبيرة، تلتصق بالسور، تُصنَع من الطين الممزوج بالتّين وروث الأبقار، مِن دون شوي.

القمح والحمّص والتّين المجفَّف. وكان بَيت المؤونة الطينيّ تظهر على أسواره تشقّقاتٍ في سقفه وعلى جدرانه من ثِقل ما يُعلَّق، كعناقيد الفلفل الأحمر العملاقة والبصل والثوم وكلّ المنتوجات الزراعيّة الأخرى. امرأة حديديّة لا تكلّ ولا تملّ، لا تترك شبراً من أرضها بوراً ولا شجرة من أشجارها الكثيرة مِن دون عناية، وهذا ألَّب ضدّها المواجع. لكن لا يجرؤ أحدٌ على أن يتعدّى على حرمة بَيتها لأنّها تمتلك من الشجاعة التي ليست للرجال وتمتلك أسلحة لا يمتلكها أيضاً الرجال، وهذا قبل اندلاع الثورة. عاشت والدتي، صغرى البنات، مع أخواتها الأربع وأخيهم الأصغر، آخر العنقود، مثلها مثل الصبيّ تخرج معه لترعى قطيع الماعز والأغنام، في بيتٍ فيه بغال وحصان وجمال، وتعود إلى البيت بعناد الأطفال وعدم الاستسلام للراحة. شقاوة الصغار. وكان يُطلَب منها أن تقوم بأعمال البيت النسائيّة من جلب الماء من الينابيع أو الطبخ وكانت ترفض بحجّة أنّها متعبة من الرعي والسير على الأقدام حافية في البرد والثلوج. وكانت والدتها تُساندها وتنهر أخواتها.

ذاكرة أمّي والثورة: ذاكرة لا تترنّح[3]

تقول «نشفى مليح كي بدأت الثورة»[4] (أتذكَّر جيِّداً عندما بدأت الثورة). مِن عادات والدتي وهي تحكي عن الأحداث التاريخيّة أن تربطها بالفصول وأحوال الطبيعة وبتفاصيل الحياة اليوميّة الماضية، زيادة للتأكيد ربّما لأنّها عاشت في فضاءٍ مفتوح، ولم تكُن تمكث في البيت سوى للأكل والنوم. تسرد أحداث البداية كالتالي: «عندما بدأت الثورة (كان عمرها آنذاك 12 سنة) جاء ستّة أشخاص للبحث عن الأسلحة وجمْعها. كنّا نسكن في بيت جدّي مع أخوالي، رحمهم الله ورحمَ الشهداء. جاؤوا قُبَيْل المغرب، كنتُ أنوي الذهاب إلى بَيت الخلاء (وفعلاً خلاء) فنادوا عليّ وسألوني عن مكان تواجد أخوالي وأخبرتهم بأنّهم في البيت، فطلبوا منّي مناداتهم وفعلتُ والتقوا بهم عند باب

(3) إشارة إلى رواية الطّاهر بن جلون «حين تترنّح ذاكرة أمّي». لم تترنَّح ذاكرة والدتي يوماً إذا تعلَّق الأمر بما قامت به أثناء الثورة ومختلف أحداث تلك الفترة... خانها القلم والقراءة والكتابة. قالت لو كنتُ أعرف الكتابة لكتبتُ كلّ شيء ولأخذتُ حقّي. دَرست في العام 2001 في مركز محو الأميّة مدّة شهرَيْن تعلَّمت القراءة والكتابة، لكنّها لم تُواصل المشوار بسبب ميلاد ابنتي.كانت تنتظر الحدث بفارغ الصبر. كان عليّ دَين تجاهها ولم أفِ به، وهو أن أعلِّمها وأمحو أميّة الكتابة والقراءة عندها... أنا مَن ترنَّحت ذاكرتي من بعدها.

(4) من مُقابلة أُجريت مع والدتي السيّدة تشينة خدوجة في بَيتها في أولاد موسى في 12 آذار/مارس 2016.

الإسطبل الذي كانت فيه الجمال وطلبوا منهم إحضار سلاحهم، بعدما طلبوا من أهل القرية أن يجتمعوا في الجامع وكلٌّ واحد يُحضِر معه ما يمتلكه من سلاح من أجل مساعدة الثورة. فأعطاهم خالي «علي» أربع بنادق وأربعة مسدَّسات... فطلبوا من والدتي تسليمهم سلاحها (حيث كانت تملك مسدَّسَين كانت قد اشترتهما حديثاً من القرية المُجاورة) أحدهما يَسع تسع رصاصات والثاني ستّ رصاصات وبندقيّة صيد. فرفَضت بحجّة أنّ السلاح عند إخوتها وقد قاموا بتسليمه لهم. ووالدتي هي مَن اشترت لإخوتها أسلحتهم. تمّت الوشاية عنها للمسؤولين، وأنّها رفضت مساعدة الثوّار والثورة فذهبت عند أحد هؤلاء المسؤولين ورافقتُها أنا، كنتُ دائماً «ألتصق بها» أينما ذهبت، وعندما قابلتِ السيّد المدعو «بوطريق»[5] لتفنِّدَ ما أُشيع عنها بأنّها رفضت مساندة الثورة ومَنْحهم السلاح. فعندما قابلته: «قال لها احضِري لي السلاح يا بنتي، وردّت عليه وماذا ستفعل به، قال لها للدفاع عن الثورة وطرد فرنسا... فردّت عليه وأنا مَن يحميني... لقد اشتريتُ السلاح من أجل بناتي، ومن أجل أن أحمِيَ نفسي... قال لها أنا أحميك... قالت له لا يُمكِنك حمايتي وباللّيل عندما تكون نائماً، مَن سيحميني... طمأنها وأكّد أنّه سيحميها وأنّ لا شيء سيصيبها ما دام حيّاً... إذا حميتك ودافعت عنك أعرفي بأنّني رجل وإذا لم أستطع فعل ذلك فلست «بحجم كلمتي»... وعندما تحطّ الحرب أوزارها سأعيد لك سلاحَك... فذهبت والدتي «المسكينة» وأحضرت أسلحتها، مسدَّسين وبندقيّة صيد وسلّمتها له»... بعدما قدّم لها ضمانات الحماية، التي كانت تشكِّك فيها «قدّورة» لأنّها تُدرِك أنّ ما يحكّ اللَّحم سوى الظِّفر... لكنّها استسلمت لأوامر الثورة.

طفولة قبيل الحرب، شياطين وملائكة

عاشت في البيت الكبير، بيت جدِّها، الذي فيه طابقٌ أرضيّ وطابقٌ علويّ. بيت طينيّ، هندسة محليّة، هندسة «بيت قبائلي» يتكوّن من مصرف للمياه يأتي على اليسار وهو مكان مخصَّص للحيوانات مثل الماعز أو الغنم وحتّى الأبقار[6]. وعلى ارتفاع منه

(5) الذي سيصبح له شان بعد انطلاق الثورة وانتشارها إذ اصبح يطلق عليه «البوشي» بالفرنسية وتعني الذباح. كان يقوم بالتخلص من الخونة ذبحا.

(6) يطلق عليها بـ «اداينين» باللهجة القبائليّة أو «الداينين» بالعربيّة العامية.

ثمّة ما يُطلَق عليه «دكّانة»[7] وفيها الموقد (الكانون) الذي كانوا يتحلّقون حوله في ليالي الشتاء الطويلة كلّهم: الجدّة والجدّ وأخوتها وأخيها لينعموا بالدفء والحنان ولسماع الحكايات والأغاني.. وأواني المؤونة التي يُطلَق عليه «إكوفان» لتخزين القمح والدقيق والتّين وغيرها من الموادّ وتكون ملتصقة بحائط الغرفة التي تُستخدَم للتدفئة والنوم... للبشر وللحيوانات.

تعترف والدتي بأنّ أطفال ذلك الوقت كانوا «شواطن» أي شياطين وكثيري الشغب، لكنّ كلَّ شيء يقومون به خارج البيوت، في الطبيعة الشاسعة. وكانت تلك «الشيطنة الطفوليّة»حلوة. كنّا نُشاغِب نجري وراء القطعان، ولم نكُن نعرف العلاقات الذئبيّة التي تحكم العلاقات بين الذكور والإناث. البنات والصبيان يُمضون اليوم في الخارج «هائمين» في المراعي (أبناء الأعمام والأخوال). كانوا مُتحابّين، لدرجة، كما قالت والدتي، عندما يجد خالكِ (تُخاطبني) أي أخيها، تينة حلوة اقتسمُها معه، حيث آكل النصف وأُعطيه النصف الآخر. لا أحد يستحوذ على المتعة بمفرده. بلغت تلك الشيطنة مبلغها، حيث كانت تلعب الفتيات الصغيرات بالعرائس المصنوعة من القصب، فوق شجرة الخرّوب العملاقة التي تُغطّي الطرقات وحتّى البيوت، وعندما يتبوّل الصغار، يعتقد المارّة من الكبار بأنّها تمطر أو أنّه رذاذ المطر فقط.

تواصل والدتي وصف العلاقة بوالدتها، التي كانت تقوم بأعمال الرجال في الخارج ولم تكُن «حنونة» بمقدار ما يحتاج إليه الأبناء، بل كانت تُظهِر قسوةً لا نظير لها في تربيتهم. إذا كانت والدتنا تحمينا من «العدوان» الخارجي، فليست هي من ربّتنا بل تربَّينا عند جدّتي (لالا خدوجة) ونانا (مولود)[8]. كنّا طيلة النهار نَجري بين المَراعي ونعمل على تنقية الزرع وجمْع الحبوب والسنابل المُتبقّية بعدما تُحصَد المَحاصيل. كما كنّا نُساعد في أعمال الحقل من غرسٍ وسقيٍ. وكنا نُقيِّل تحت الأشجار. عندما يتعب أخوالي

(7) أو مايطلق عليها «ثادوكّانت» وهي عبارة عن مقعد مستطيل، أو مصطبة، مبني من بالطين والحجارة والتي تنتصب عليها «إكوفان» لتخزين المواد المختلفة لاسيّما المنتوجات النباتيّة. وفي أسفلها توجد فتحات تستخدم في حفظ العديد من الأغراض.

(8) كانت جدّة والدتي (لالا خدوجة كما نطلق عليها جميعاً) و«لالا» لفظ كبار وإجلال لذوات المكانة المرموقة وكبيرات العائلة وللوليّات الصالحات. ونانا «مولود» نانا أيضا لفظ تقدير لمَن هنّ أكبر منّا سنّاً مهما كانت درجة القرابة. ولالا خدوجة ونانا مولود متزوّجتان من إخوة، جدّ والدتي قدور وأخيه محمّد.

من تلك الأعمال تعوّضهم نساء العائلة مع البنات للسقي. كنّا لا نتعب ولا نملّ. وفي اللَّيل نقصد بيت «نانا مولود» (هي أيضاً سُمِّيَت على اسم والدها). كانت تحبّنا وتخاف علينا. وكان صدرها يتّسع للجميع. ففي أيّام الشتاء تُشعِل النارَ بوساطة جذوع كبيرة، ومَن تبلَّلت ثيابه مِنّا كانت تقوم بتجفيفها بوضعها فوق ذلك الحطب لنرتديها مرّة ثانية بعدما تجفّ وكانت تُعطينا لحافاً نتدثَّر فيه إلى أن تجفَّ الملابسُ المبلَّلة... وكانت تضع الفراش بالقرب من الموقد الذي يظلّ مشتعلاً والذي ترقد بجانبه، تُراقِب أيّ شرارة تصدر منه. كما كانت تُطعمنا ممّا تطبخ من مأكولات شهيّة. بينما كانت والدتي دائماً منهمكة في مشاغلها في بيتنا في الجهة المقابلة للوادي. دائماً تقف الذاكرة عند فواصل زمنيّة مؤلمة، ذاكرة الأطفال التي تُشبِه ذاكرة الحاسوب، تلتقط كلَّ شاردةٍ وواردةٍ، ولن تنسى التفاصيل إلّا إذا تمّ حذفها بهزّاتٍ وصدمات أقوى. تروي والدتي ما حدث لابنة عمِّها، فتقول: «لم يسلم أحد من أذى الاستعمار حتّى الرضَّع». تنقل الواقعة تلك بكثيرٍ من الشجن والأسى: «عمّي (بابا دودح[9]) قتلوا ابنته الرضيعة التي كانت في مَهدها (الدوح) وكان عمرها لا يتعدّى الشهرَيْن فأخذوا المهد ورموه أسفل إلى «الداينين»، لم تمُت في ساعتها، بل بقيت تئنّ وتئنّ، ولم تشرب قطرة حليب واحدة. ثمّ ماتت بعد يومَين. قاموا بتهشيم عظامها الطريّة، فكلّما أمسكوا بعضاً من أعضائها كانت تصرخ من شدّة الألم». كذلك عذّبوا الكبار، وتتذكّر ما فعلوه بأحد أقربائها حيث «ربطوا رجلَيه في سقف البيت ورأسه إلى أسفل وكانوا يعذِّبونه عذاباً شديداً».أفعال فرنسا لا يُمكن تصوُّرها.

كمين «جراح» كما روت تَبعاته

بالدقّة والتصوير الحيّ والحماسة والأحاسيس نفسها التي كانت تعيشها في تلك الأثناء، وبالأماكن والمواسم وأسماء من حولها وحالة الطبيعة، تحكي على «كمين جراح»[10] كأنّها تكتب سيناريو فيلم لا يحتاج سوى إلى وضع الكاميرات للتصوير،

(9) اسمه السعيد ويطلقون عليه بابا «دودح» بمعنى الصغير جدّاً، بينما كان عظيم البنية الجسمانيّة. كانوا يستعملون الأضداد لتفادي الحسد أو الشؤم.

(10) يُطلق عليه في الكتابات والإعلام الكولونياليّ اسم «كمين باليسترو»... وباليسترو اسم أطلقه الفرنسيّون على منطقة «الأخضريّة» حاليّاً (سُمّيت على اسم الشهيد سي لخضر واسمه الحقيقيّ رابح مقراني) تيمُّناً واعتزازاً بمعركة باليسترو في إيطاليا التي وقعت في أيّار/مايو 1859 والتي انتصر فيها الجيش الفرنسيّ الإيطاليّ انتصاراً ساحقاً على =

في أماكنها الطبيعيّة. المعركة ـ الكمين التي لم يُكتب عنها سوى القليل جدّاً، ما كتبه الرائد عزّ الدّين[11] وما نقلته عنه مؤرِّخة فرنسيّة اشتغلت على أرشيفات الحرب التحريريّة الجزائريّة في سنوات التسعينيّات[12] عن تلك الحادثة التي كبّدت فرنسا خسارة كبيرة، تروي نساء المنطقة من مُتابِعات الأحداث وتأتيهنَّ الأخبار من المُجاهدين مثل زوجة خال والدتي (خالتي عزيزة[13]) عن تلك التفاصيل المؤلمة بسياق طبيعيٍّ جميل، إذ تربط تاريخها بفصل جني، الباكور، بواكير التين، وتربط الحدث بإضراب لا تعرف أيَّ الإضرابات كان؟ هل إضراب الثمانية أيّام أم غيره؟[14]: «أتذكَّر بأنّ ذلك كان في فصل الباكور، طلب منّا «خالي» أن نقوم نحن النساء والفتيات بجني الباكور للمُجاهدين الذين سيأتون، لأنّ بيتَنا بكلّ بساطة كان «مركزاً» لاستقبال المُجاهدين والكتيبة كان يصل تعدادها حتّى 600 شخص. وكلّ البيوت المُجاوِرة تستقبل الجنود وتسهر على راحتهم من مأكلٍ وملبسٍ وتسهر على راحتهم. كانوا عندما يأتون، ومن كثرة المشي ينزعون أحذيتهم، فكانت تُنزَع معها «الجلود الدامية من تحت أرجلهم مع الجوارب». وصلت في ذلك اليوم، مع الجيش الذي لاذ بالفرار بعد الكمين، البغالُ المحمَّلة بألبسة الجنود الفرنسيّين الذين قُتلوا في جراح. أخذت النساء، ونحن الفتيات، تلك الملابس لغسْلها في الوادي. فكانت مَن تغسِل تغسِل ومَن تعصر تعصر ومَن تنشر تنشر... كلّ واحدة تقوم بمهمّة... مياه الوادي أصبحت حمراء من الدماء... القبّعات بها بقايا مخّ الجنود الفرنسيّين والألبسة أيضاً مشبعة بالدِّماء. وكنّا ننشر تلك الألبسة ونغطّيها بالأغطية الصوفيّة «الحياك» بعدما

= جيش الإمبراطوريّة النمساويّة... وغيَّروا اسم البلدة القديم المحلّي الذي كان قبل الاستعمار، وهو «آيت أولمو». كما تقرَّر إنشاء بلدة باليسترو الفرنسيّة من طرف نابليون الثالث في العام 1869.
https://fr.wikiqube.net/wiki/Ambush_of_Palestro

(11) واسمه الحقيقيّ «رابح زراري» ضابط من ضبّاط جبهة التحرير الوطنيّ، كان قائد الكتيبة الإقليميّة المُسمّاة «كوموندوس علي خوجة» في الولاية الرّابعة. و«علي خوجة» واسمه الحقيقيّ «مصطفى خوجة» قائد عسكريّ أنشأ فرقة كوموندوس ونفَّذ عمليّات عدّة أبرزها «كمين باليسترو» أي «كمين جراح»... وكان قائد القوّات البحريّة الفرنسيّة اسمه هارفي أرتور.

(12) يتعلّق الأمر بـ: «رافائيل برانش»مؤلِّفة كِتاب: L'embuscade de Palestro. Casbah Edition, 2010

(13) زوجة خالها الشهيد مسعود تشينة الذي سُمِّيت مدرسة القرية باسمه، وأخيها أحمد أيضاً استشهد في مشهد يحتاج إلى وصفٍ في مكانٍ آخر وهي زوجة أخ جدّتي وابنة عمّها.

(14) كان إضراب الطلبة الجزائريّين الذي انطلقَ في 19 أيّار/مايو 1956، وكان كمين جراح في 18 أيّار/مايو من السنة نفسها. بينما إضراب التجّار، إضراب الثمانية أيّام كان من 29 كانون الثاني/يناير إلى 4 شباط/فبراير من العام 1957.

نقوم بنشرها فوق الأشجار الصغيرة التي تُغطّيها أشجار الخرّوب الكبيرة، المحاذية للوادي كلّما رأينا طائرة العدو[15] تُحلِّق للبحث عن المجاهدين بعد ما حدث بجراح....وبمجرّد أن تغادر المكان كنّا نسرع وننزع الأغطية لكي تجفّ الملابس... وهكذا تعود الطائرة ونعود نحن للتغطية والتمويه... تتذكّر والدتي أنّها رأت «شارل ديغول» بطوله و«ماسيو»[16] بالبيدر المحاذي لبيتهم عندما نزلوا بمروحيّتهم «الموشارة»[17]... وهذا ربّما بعد ردّة الفعل عمّا حدث في منطقة جراح غير البعيدة عن منطقتنا بحارة؛ حيث كان الجنود يأتون للمنطقة للاحتماء والتموين... كما كانت تحكي على الممرِّضة «باية الكحلة»[18] والسي عبد الله الذي كانت تشتغل تحت إمرته... كما حدّثتها خالتي عزيزة أنّه كان يأتيهم العربي بلمهيدي، وسي لخضر، والسي عبد الله...

«مُجاهدات... على يخوتهنّ»

عبارة جاءت متأخِّرة بعدما أحبطت خطّتها في الالتحاق بالجنود. كان يا ما كان حكاية فتاة ثائرة هي وقريباتها. فتيات لم يدخلْنَ لا كتّاب ولا زاوية ولا مدرسة جمعيّة العُلماء ولا المدرسة الفرنسيّة. ولم يكنّ يعلمنَ ما معنى الانخراط في تنظيماتٍ سياسيّة او طلّابيّة. لا يستمعْن للراديو الذي لم يكُن أحدٌ يمتلكه. ولا تصل إلى عندهنّ الصحف ولا المنشورات. وإلى حدّ الساعة لا يُمكن لغوغل ومعلوماته أن يجد اسم المنطقة التي

(15) قُتل في كمين جراح 21 وهناك مَن يذكر 18 جنديّاً فرنسيّاً وأخْذ المُجاهدين رهينة واحدة. وكان الإعلام الفرنسيّ قد تحدَّث عن تنكيلٍ كبيرٍ ومتوحّش بالجثث من ذبحٍ وفقءٍ للعيون وغيرها من الأفعال التي وصفوها بالهمجيّة والبدائيّة، الأمر الذي لم يكُن كما جاء في إعلامهم وشهاداتهم بحسب المؤرِّخين. فكانت ردّة فعل الفرنسيّين قاسية، وهي تدمير القرية وتهجير مَن بقي فيها. وطاوَلَ الانتقام إلى المناطق المُجاورة.

(16) بعد كمين باليسترو، قام الجيش الفرنسيّ بتهجير سكّان قرية جراح وتدميرها انتقاماً لمَقتل الجنود الفرنسيّين تحت قيادة المُلازم «آرتور». وتولّى الجنرال ماسيو عمليّة عسكريّة كبيرة، بنحو 3 آلاف رجل، شملت منطقة عمال وماجاورها حتّى بوزقزة. ترهيب كبير للريفيّين وقتل وتعذيب... و«بحارة» بلدة أمي تقع بين هاتَين المنطقتَين. وتمّ قتل 50 متمرّداً وتوقيف 30 مُشتبهاً بهم. لتفاصيل أكثر ارجع إلى كِتاب «رافائيل برانش» وفيلمها الوثائقيّ عن الكمين.

(17) من الكلمة الفرنسيّة «mauchard» أي الواشي. و«الموشارة» صيغة مؤنّثة للطائرة العسكريّة التي كانت تظلّ تحوم حتّى تَجد مَن تبحث عنهم لتقوم بإنزال الجيش في أيّ مكان ومهما كانت طبيعته.

(18) واسمها الحقيقي «تومية لعريبي» وتُعتبر من أولى المُمرّضات اللّواتي التحقْنَ بالجبل وبجيش جبهة التحرير في منطقة باليسترو تحت قيادة علي خوجة. ولأنّها سوداء البشرة، كانت تُلقَّب بباية الكحلة. وكانت معروفة بين القرويّين ومحبوبة لأنّها كانت تقوم بمُعالجتهم ومُساعدتهم طبيّاً وصحيّاً.

كنّ يسكنّها. فتاتان تُقرِّران الالتحاق بالجنود والجبل، وهُما مع أقرانهما من الصبيان والفتيات أسهموا في الثورة بما كانوا يكلَّفون به من الكبار كأن: «يمسحون آثار أقدام المُجاهدين الذين يأتون إلى المنطقة ويبقون في بيوتهم، وذلك باستعمال «الشطب» أي أغصان من شجرةٍ ذات أوراقٍ ويمسحون بها تلك الآثار، أو يرعون نعاجهم التي غالباً ما يُموِّهونَ بها العسكر «فعندما نرى شاحنات العسكر التي تمرّ بمنطقتنا، ننتبه إنْ كانت تُغادر مليئة بالعسكر أم فارغة أو ناقصة فنعرف أنّهم في مكانٍ ما للقيام بكمينٍ للمُجاهدين فنُسرِع بنعاجنا لإبلاغ المُجاهدين بما رأينا ولاحظنا».

أمّا عن قرارها بأن «تلبس» أي ترتدي الزي العسكريّ، زيّ جيش جبهة التحرير الوطنيّ، أو بالأحرى المُجاهدين، فتقول إنّ ذلك لم يكُن جزافاً (برك برك) بل نتيجة الاضطهاد الذي كانت تتعرّض له والتحرّش بها من طرف الجنود الفرنسيّين. فتتذكّر كيف كانت تُسأل في كلّ مرّة عن مكان زوجها، يعتقدون أنّها متزوِّجة لأنّها كانت مكتملة البنية وتبدو أكبرَ مِن سنّها. يتركون الجميع ويتّجهون صوبها. ثمّ كانت تتعرّض للتفتيش الجسمانيّ الدقيق من طرفهم ويلامسون كلّ مَواضع جسمها الحسّاسة «كلّ مرّة يفرعسوني... كلّ مرّة يفرعسوني». وعندما تتحدّث عن اللِّباس، على الرّغم من أنّني لم أكُن أرتدي فساتين البنات، بل كنتُ ألبس قمصانَ أخوالي التي يتركونها بعدما أُعيد خياطة بعض الأجزاء فيها وتهيئتها لتتلاءم وبنيتي... كان يُطلق عليها «بلوزة مورسيليس» كنتُ أنزع لها الأزرار مثلاً وأخيطها لتصبح مثل الجبَّة.

عن اللِّباس فَتَحَت فقط قوساً، لأنّه لا يُعتبر مُهمّاً في سياق الحديث. تُواصل عن قرار الالتحاق بالثوّار. فأبلغتُ ابنة خالي أنّني سأحمل السلاح على كتفي وكلّ مَن يقترب منّي سأطلق الرصاص عليه. أعيش سعيدة أو أموت شهيدة ولا أموت «محقورة» أو «مذلولة». تواصل رحلة تحرُّرها. «لو اتّجهنا للجامع مباشرة لكنّا تحصّلنا على الزي العسكريّ ولكنّنا صعدنا إلى الجبل... قصدنا أحد المسؤولين «السّي سليمان» الذي بنفسه اتّجه للمسؤول عن المنطقة «السّعيد علي ارّمضان»[19]، فأخبره بقدومنا وبأنّنا ننوي الالتحاق بالمُجاهدين. جاء المسؤول على الناحية لمقابلتنا، فقال أردتما أن تتجنّدا وتأتيان مَعنا... اليوم سبت

(19) لحدّ الساعة مازال الناس يُطلقون على بعضهم البعض الأسماء الثلاثيّة بصيغتها الأمازيغيّة: سعيد بن علي بن رمضان أو باسم الانتماء للجماعة او القبيلة، وهذا على الرّغم من فَرْض ألقاب عائليّة لا تمتّ بصلة لثقافة =

وغداً أحد... يوم الإثنين سيأتيكما الزي العسكريّ للجامع، بالقرب من الزيتونة، على الساعة الرابعة... فرحنا فرحة لا توصف، وعندما قرب الموعد، اتَّجهنا صوب مغارة بالجبل (تيفريت) للمبيت هناك لانتظار اللّحظة الحاسمة التي نستلم فيها اللِّباس... مغارة محاطة بأشجار السرو، قمنا برصّ الحجارة عند فوهتها حتّى نتفادى دخول الحشرات والحيوانات والذئاب خصوصاً، وتركنا منفذاً لنُراقب المارّة. ونحن كذلك، لاحظنا مجموعة من المُجاهدين في طريقهم إلى بيتنا... في ما بعد علمتُ أنّ والدتي استنجدت بهم وتوسّلت إليهم ليعودوا عن قرارهم ويرفضوا تجنيدي. القرار كان صعباً جدّاً لولا أنّ أحدَ الجنود الكبار في الجبهة توسَّط لها لدى مَن يُقرِّرون. أتذكّر جيّداً مَن أتى إليها... وكانوا: «سي حميدات وموسى ن علي رمضان وعومار ن علي أعومار ورمضان سلف خالتك»[20]. وتتذكّر أسماءهم ولم تكُن تدري سبب مجيئهم إلّا لاحقاً عندما بحثت عنها إحدى أخواتها، وبدأت تنادي تعالي لقد أحضروا لكما اللِّباس. وعندما وصلتا إلى البيت، كلّمهنّ القائد سي حميدات، وسألهنّ: «... جئتما (للتسجيل بقائمة المجنّدين) من أجل الالتحاق بصفوف جيش الجبهة، وماذا لو وجدتما العسكر في الطريق»؟ فأجبته (تقول والدتي) «كنتُ سأقول لهم كنتُ بطريقي إلى الدكّان (دكّان موح الحسين)[21] لأشتري الصابون». ثمّ سألني سؤالاً آخر: «ولو أعطاكِ أحدهم بندقيّة فهل بإمكانك الذهاب بها إلى معسكر الفرنسيّين بقدارة[22]؟ هل يمكنك فعل ذلك؟ قبلت والدتي التحدّي بإجابتها هذه:

«... قلتُ له، كلّ شيء بالإثبات. أعطني مسدساً فإذا عدتُ إليك مِن دون أن آخذ حقّي وأقتل ضحيّتي «(نجيب شاتي) افعل بي ما تشاء. وإن قتلت ومتّ الله يرحمني أعيش سعيدة أو أموت شهيدة. كان هذا شعارنا أنا وفاطمة ابنة خالي». ثمّ نادى على

= الجزائريّين وأحياناً ألقاب مُشينة، جَعلت الكثيرين يغيّرونها بحُكم محكمة. جاءت هذه الألقاب بموجب إصدار الإدارة الاستعماريّة الفرنسيّة لقانون الحالة المدنيّة أو قانون الألقاب وهذا بتاريخ 23 آذار/مارس 1882.

(20) لفظ السي (مثل السيّد) يُطلق على مَن تتلمذوا بالزوايا والمدارس القرآنيّة، من حفظة القرآن الكريم. ورمضان كان ضابطاً في جيش جبهة التحرير وهو أخ زوج أختها الكبرى، السيّدة حوريّة.

(21) دكّان موجود بالقرب من بيت المسؤول الذي قامتا بتسجيل اسميهما عنده... وموجود في منطقة تدعى «الحدورة».

(22) «قدارة» بلدية من البلديّات التي تتبع ولاية بومرداس حاليّاً، وتوجد ضمن منطقة «بوزقزة» اسم يطلق على الجبل، أو الجبل الأخضر، حيث كبَّدَ الثوار فرنسا خسائر كبيرة. وتقع شرق العاصمة الجزائر على بعد حوالى 52 كم. و«بحارة» ضيعة والدتي تبعد عن قدارة شرقاً بحوالى 3 كيلومترات.

«خالي علي» و«خالي رابح» (الأوّل خالي لأنّه مسؤول عنّي والثاني والد فاطمة) وقال لهما: «... الرجال لم يتحمّسوا لمساعدة الثورة، بينما الفتيات أخذتهنّ الغيرة لمدّ الثورة بدمهنَّ وجهدهنّ أو بأيّ شيء كان. لم يخشين أحداً سوى الله. وأَقْسَمَ لهما «لو أنّ أحداً مسّهما بسوء فسأقتله وأرميه بالشعاب». وأضاف السي حميدات قائلاً: «هذوا كي يرقدوا فالفراش راهم موجاهدات... ما دام قلبهم معانا وروحهم معانا حتّى واحد ما يمسّهم... رآهم لابسين ماليوم... يرقدوا يقعدوا واش ايديروا موجاهدات» (هؤلاء حتّى إذا نمْنَ فهنّ مجاهدات... ما دامت قلوبهنَّ وأرواحهنَّ معنا ولا أحد يجرؤ على ايذائهنّ... إنّهنَّ مجنَّدات من اليوم... وإنْ نمْنَ، وإن بقين جالسات... أيّ شيء يقمن به فهنَّ مجاهدات). لكن لا أحد يجرؤ أن يقترب أو يتعرّض لجدّتي، لأنّها أمٌّ كانت تخاف على ابنتها، ولأنّ البيت الكبير بيت مُجاهدين وتحت عين السلطة الاستعماريّة وأعين الواشين... ولأنّها فتاة صغيرة لا يُمكن لوالدتها أن تتخيَّلَ أنّها بالجبل مع «الذكور» وإن كانوا مجاهدين... لذلك فبمجرّد مغادرتهم المكان، أشبعت ابنتها ضرباً... الضرب كان موجعاً، لكنّ الثورة في قلب ووجدان البنت ذات الـ 14 عاماً زادت جذوتها. ولم تترك عملاً في سبيل الثورة إلّا وقامت به. وهي في تلك السنّ قام أحدهم بوشايتها لدى العسكر، ممَّن تركوا الجزائر عند الاستقلال واستقرّوا في فرنسا، وقالت لي عن هذه الحادثة: «لو بحثوا في الأرشيف الفرنسي لوجدوا أنّني مسجّلة عندهم. كانوا يلقبّونني يالفلاڤة[23]. بيعوني الحركى[24] لولا تدخّل زوج خالتك، الذي واجه الفرنسيّين الذين جاؤوا لأخذي، وأبلغهم بالضرب الذي ضُربته عندما سمعت والدتي بخبر رغبتي باللِّحاق بالثوّار... وبأنّنا نعيش في المحتشد، الآن، وأنّنا محاطون بالسياج والأشواك، فأين أجد المُجاهدين وأين يجدونني... ثمّ قال لهم لو أحضرتموها إلى المركز، والله لن أحمل سلاحكم مرّة أخرى فوق كتفي... تقول: «هو مَن أنقذني»[25].

(23) اسم أَطلقه الفرنسيّون على الجزائريّين المُحاربين من أجل استقلال بلادهم. وكانت التسمية عبارة عن تهمة تؤدّي إلى السجن والتعذيب والموت.

(24) الحركي أو الڤومي اسم يُطلق على مَن ساعدوا فرنسا سواء كقوّة مسلّحة أو بالوشاية على الثوّار، والذين يُساندونهم ويساعدونهم من المدنيّين. وتمَّت الوشاية بها في عدّة مناطق وفي عدّة مُعسكرات.

(25) زوج أختها كان مع المُجاهدين، كان يشكّل «الرابط بين الثوّار» من خلال نقل الرسائل والسلاح والتنقُّل إلى كلّ مكان. ثمّ التحق بالجيش الفرنسيّ وهو مَن بقي يُنبّهها إلى ما يُحاك ضدّها من طرف الجيش الفرنسيّ بفعل الواشين. =

هزّتها أهوال الحرب وما كان يقوم به الجيش الفرنسي من قتلٍ للنساء والأطفال وتعذيب الرجال أمام أعين الأطفال. تروي حكاية مقتل إحدى قريباتها بطريقةٍ بشعة بقصفٍ عشوائيّ، وهم أطفال كانوا مع عمِّهم وبناته يجنون الرّمان. كنّ يحملنَ أكياس الرّمان عندما بدأ القصف من على ربوة «تيزي» صوب القرية ومنعهنّ العمّ من الهروب حتّى لا يتّجهون بمدافعهم صوبهم. كانوا يمشون والغبار يتطاير من أمامهم وخلفهم والأحمال على رؤوسهم. عندما وصلنا إلى بيوتنا، تقول: «انقسمنا على حِدة، أختي، وزينة وفاطمة ابنتا عمّي اتَّجهن إلى بيت عمّي السعيد، وأنا ومشماشة وموني الله يرحمها دخلنا بيت عمّي قادر. كانا مُتقابلَين. صوت الرصاص على القرميد كالبَرَد. فضربوا مدفعاً أَحرق أحد البيوت. وزادوا بيتاً آخر. وجدوا شجرة خرّوب زوجة خالية تماماً من ورقها. وفي ذلك اليوم قتلوا «الزهرة أعومار» (الزهراء ابنة عمر) من «الشمايسة»[26]. طار رأسها وانتشر مخّها على الأرض. ومنذ تلك الحادثة التي خرَّبت البيوت والأرواح، غادرنا المنطقة. وبالقوّة أيضاً نحو المحتشد بـ«قدارة»... وهذا كلّه من تبعات كمين جراح.

«مسبّلة»[27] بعد الزواج

على الرّغم مِن قرار المسؤولين بالثورة، القاضي بمنْع الزواج من خارج القرية، إلّا أنّ والدتي تزوّجت خارج القرية، وهذا لم يمرّ مرور الكرام، حيث وشِيَ بها من طرف عبد الرّحمن جارها، الذي تعاونَ مع الفرنسيّين في ما بعد وأقام في فرنسا هو وأولاده إلى حدّ اليوم. إلّا أنّ والدتها صمّمت على عدم تزويجها، لا هي ولا أختها له على الرّغم مِن كلّ محاولاته التي باءت بالفشل. حتّى أنّه هدَّدها بالقتل، ولأنّها لا تبالي، أقسمت له بأنّه لن يستطيع لمسَ شعرة من شعر رأسها. فلم يجد غير وشايتها للمسؤولين على الثورة

= وكان في كلّ مرّة يُرسل إليها والدتها لتحذيرها. وهذا بعدما تزوّجت وسَكنت مدينة سان بيار سان بول، أولاد موس حاليّاً.

(26) نافذة صغيرة تسمح بدخول أشعّة الشمس إلى البيت.

(27) العديد من المصطلحات ظهرت في أثناء الثورة التحريريّة، مثل «المسبل» وهو الفرد الذي يقوم بأعمال مهما كانت طبيعتها سياسيّة أو مدنيّة أو إداريّة من أجل الثورة التحريريّة. وهذا الفرد قد سبل نفسه من أجل الوطن ولا يخشى الموت. وكذلك «الفدائيّ» ذلك الذي توكَل له مهمّة القيام بعمليّات عسكريّة لفائدة الثورة، داخل المُدن بصفةٍ خاصّة. أمّا «المجاهد» فهو يعني كلَّ مَن يحمل السلاح لمُواجَهة المُستعمِر.

باعتبار أنّ «قدورة» انتهكت القرارات وأوامر المنع تلك: نادت «رمضان» صهرها، وقالت له أنا أعلم أنّكم ترفضون تزويج البنات مِن خارج القرية لكنّني لا أحبّ ذلك الشخص فهل أُرغَم على ذلك؟ فنادى رمضان عبد الرّحمن وقال له: ما بك هل أنتَ مريض؟ أحدهم لا يحبّ أكلَ الخبز المحروق فهل ترغمه على أكله؟ فأمره بأن لا يكلِّمها أبداً، وإلّا فهو مَن سيُواجهه. وعندما سكنوا المحتشد، أيضاً «وشى بي (بيعوني) للعسكر الفرنسي بحجّة أنّ والدتي زوَّجتني لأحد «الفلاقة». والحركي الذي يشتغل لمصلحة فرنسا، هو أَولى بابنة منطقته. وجاءها الضابط يستفسر عن الحادثة، وقال لها كيف تزوِّجينها لفلاق؟ فردّت عليه والدتي: «حنا منين تخرج الكلمة تخرج العمر» من أين تخرج الكلمة تخرج الرّوح، دلالة على الالتزام والوفاء بالعهد... «وبأنّها زوّجتني لابن عمّتي وليس لرجل غريب». تزوّجت مثل زيجات تلك الأيّام عام 1958، وهي ابنة 17 سنة، مِن دون أيّ مظاهر للاحتفال أو الزينة. المهمّ تزوّجت لتستر مِن أيّ حادثة، ولاسيّما الاغتصابات وفقدان الشرف وأن تكون في عصمة زوج «يشكمها». تواصِل والدتي مشوار العمل النضاليّ المستمرّ فتقول: «مجاهدو منطقتنا يعرفونني. وعندما أَمرت فرنسا بإخلاء القرى والمداشر وجمع الناس بالمحتشدات، هرب المجاهدون ولجأوا إلى المُدن، والمناطق الحضريّة. لا يوجد مَن يؤكِّلهم. ولا مجال لإيقاد النار بالبيوت المهجورة، مِن أجل تحضير الطعام. فعندما يُلاحِظ العسكر الدخان يشرعون في إطلاق النار. وحتّى عندما تصل مواسم جني الزيتون أو «الخريف» (موسم الفواكة والغلال الصيفيّة، ولاسيّما التين) نعود إلى حقولنا بطلب تسريح من العسكر. تحوّل بيت زوجي الذي كنتُ أقطن فيه مع حماي وحماتي وأختي وزوجها، إلى بيتٍ يقصده المجاهدون للتزوُّد بالمؤن. كان يأتي إلى عندنا حتّى 15 فرداً من المُجاهدين للأكل مع أنّنا نسكن بالقرب من المعسكر، بقلب مدينة سان بيار سان بول. وكنتُ أضع إشارة لهم لتوضيح الوضعيّة (الأمنيّة) لهم: فعندما أرى أنّ الوضع خطِر، أضع قطعة قماش سوداء على شجرة العنّاب التي بالقرب من البيت، وعندما يكون الأمان أضع قطعة قماش بيضاء... وإن لم يأتوا للأكل بالبيت نُرسِل لهم المُشتريات التي يحتاجون إليها، وهي أكلٌ، ألبسة، أحذية، وكلّ ما يلزمهم (القُضيان) إلى بيت السيِّدة «ورشانة»... لأنّ لديها ببيتها مخبأ سريّاً تضع فيه كلّ مؤن المجاهدين التي تصلها من الشعب. وبعد مقتل سبعة من الجنود في منطقة «الأربعطاش» في إحدى المغارات،

قبضوا على أحدهم حيّاً، تعرفه والدتي لأنّه مِن المناطق المجاورة لقريتها. وبعد التعذيب والاستنطاق وشى بها وكانوا يُحاصرون بيتها كلَّ ليلة، وهي لم تكُن على علم بذلك، حتّى أرسل لها كالعادة زوج أختها الخبر مع والدتها، فقال لهذه الأخيرة: «قولي لها ما الذي تفعله هناك... هنا فلتت منهم بفضل الله بعدما وشوا بها... والآن زاد أحدهم وقد وشى بها»... «ابن الباشا» مَن وشى بها، فأرسلت فرنسا قوّةً مشكَّلة من خمسة معسكرات لتطويق المنزل من بينها: معسكر بنورة، زقاغة، الخروبة وجا ماس(جي ام اس)[28]. وهذا بعد الإمساك بِـ «بن الباشا» الذي أتوا به بكيس على رأسه (بوشكارة)[29] «وشى بنا وأتى به العسكر وقال إنّه كان يأكل عندنا وإنّه يوجد مخبأ في بيتنا... وإنّني أنا أخت «أوليشي» (واسمه رمضان أخ زوج أختها)... قلتُ له أنا أخت «أوليشي» فردّ بالإيجاب... ثمّ دخلتُ البيت وأحضرتُ الدفتر العائليّ... أخي عمره 11 سنة صغير والاسم ليس نفسه وأنا بحياتي لم أسمع بهذا الاسم... إذا افقدتموه عقله بالتعذيب وأصبح يهذي... أخي ها هو وأنا «بوزيد» (لقب زوجها) و«تشينة» (لقب عائلتها)... فقلتُ لهم هذا لا أعرفه ولا أعترف به... ولم يأتِ إلى عندي ولم أرَه... ثمّ أخذ الجندي الفرنسي بمؤخَّرة سلاحه وضربني فأوقعني عند باب البيت... ثمّ تدخّلت جارتها «فاطمة» التي كانت تُحسِن الفرنسيّة وقالت لهم: ما هذا؟ ماذا تريدون؟ أتريدون أن تفقدوا المرأة عقلها؟ على ماذا تبحثون؟ قالوا لها نبحث عن المخبأ... قالت لهم ادخلوا احفروا بدبّاباتكم... لن تجدوا شيئاً... ثمّ عن قريب سيُرفرف العَلم... وسيتمّ وقف إطلاق النار... إنّهم يتكلّمون ويتفاوضون عليه».

في ما بعد علمتْ والدتي أنّ العسكر الفرنسي يتربّص بها، وهي التي كانت تعتقد أنّها تخلّصت من وشاية «ابن الباشا»[30] الذي أقسم لها بأنّه سيأخذ ضحيّته من بيتها. وواصلت، بكلِّ الخوف والهواجس مِن أن يكتشف أمرها مسيرة النضال إلى جانب زوجها وصديقتها

(28) أسماء مناطق جبليّة مُحاذية لبوزقزة والتابعة لمُقاطعة الجزائر إبّان الاستعمار... والحيّ الأخير GMS هو اختزال لفِرق الأمن المُتنقّلة، والتي كان يطلق عليها من قبل اسم فِرق الشرطة الريفيّة المُتنقّلة (GMPR). وتمّ إنشاؤها بناءً على القرار الحكوميّ في 24 كانون الثاني/يناير 1955 وبموجب مرسوم الحاكم العامّ للجزائر. ثمّ تحوّلت مقرّاتهم بعد الاستقلال إلى مساكن شعبيّة.

(29) كان يوضع على راس الواشي كيسٌ حتّى لايعرفه الشعب، ولاسيّما مَن يواجههم حتّى لا يتمّ الانتقام منه... وتُخفى هويّته.

(30) اسم مُستعار لأحد الوشاة ممَّن تعرفهم ويجاورونها في السكن وقت التجمُّع في المُحتشدات. وكان جنديّاً ضمن جيش التحرير، قبل إلقاء القبض عليه. وليس الاسم الوحيد الذي كانت تعرفه وكان «حركيّاً» و«خائناً» وتحوّل بقدرة =

خديجة... إلى أن جاءت عمليّة تجريد أحد الشهداء، عبد السلام، من أسلحته وما كان بحوزته من وثائق: «... كنتُ دائماً أحمل ابني مصطفى وأخرج للتمويه به... عندما قتلوا مجموعة من المجاهدين في مخبأ أحدهم بعدما كانوا قد تفرّقوا، جماعة منهم أخذت سيّارةً وعبد السلام ذهب في درّاجة ناريّة... عندما وصل الأوائل المخبأ قتلوهم داخله بأولاد حمادة... بينما عبد السلام قتلوه داخل حقل من حقول القمح بالقرب من مدينة بودواو... كان ذلك في شهر ماي (أيّار/مايو)... فأسرعتْ نحوه خديجة بعدما أعلمها جيش الجبهة بالحادثة لأنّ زوجها كان من مفجِّري الثورة التحريريّة بالأوراس وأخذت سلاحَه. أَعلمت والدتي بضرورة لقائها لتعطيَها السلاح. عندما اقترب موعد وقف إطلاق النار كان الوضعُ سيِّئاً جدّاً. فالدبّابات والدوريّات في كلّ مكان تقتل وتُنكِّل وتُعذِّب. كثيرون من الناس تراجعوا عن دعْم الثورة من شدّة الذعر، فلم يبقَ سوى مَن آمنوا بالقضيّة إيماناً مُطلقاً. عند عودتها وجدت كالعادة الفرنسيّين في كلّ مكان ومن معسكراتٍ عدَّة مع بعض الجزائريّين العُملاء. وعندما رأتها جارتها قادمة من بعيد بدأت تقوم بحركات لتُنبِّهها ممّا ينتظرها. وبمجرّد وصولها باغتوها بالسؤال أين كنتِ؟ كنتُ أحمل ابني لأسكِته وأخفِّف عنه وعكاته الصحيّة. وتقول: «فعلاً كان مصطفى مريضاً وكان الطبيب اليهوديّ الذي كان يقطن الرغاية يأتي كلّ يوم ليشرح لي كيفيّة أخذ الدواء والرضعات. كنّا وفي كلّ مرّة نقوم بوخز الأطفال لكي يبكوا ويُقلقوا الجيش الفرنسيّ ويتركونا» كانت تُلاحِظ هذا الأمر وهي طفلة عندما كانت نسوة القرية يجتمعْنَ في مكانٍ واحد وهنَّ يضممْنَ أطفالهنّ إلى صدورهنّ. فعندما يتقدّم العسكر صوبهنّ يوخزن الأطفال بقوّة ليصرخوا ويُحدِثوا فوضى وصخباً.

مُشاركة النساء في الثورة التحريريّة... ألَمُ النسيان والتجاهُل

كلّ الدراسات أجمعت على أنّ مُشارَكة النساء في الثورة التحريريّة كانت قليلة مُقارَنةً بالرجال. وحتّى اللّواتي شاركْنَ فعليّاً، وخصوصاً نساء الأرياف والقرى من غير المتعلِّمات، تمّ تغييبهنّ من التاريخ المكتوب، ومن ذاكرة بعض «المسؤولين». ومع

= قادر إلى مُجاهد وله العضويّة في وزارة المُجاهدين. يا الله كم كان يحزّ في نفسها أن يُرفض ملفّ عضويّتها وتُقبل عضويّة هؤلاء ومَن هُم على شاكلتهم.

هذا، لمَن يبحث، تقول والدتي سيجد أنّ طلب التحاقي بجيش جبهة التحرير الوطنيّ، أنا وفاطمة، قد سُجِّل في وثائق مسؤولي الناحية، وحتّى في أرشيف الحكومة الفرنسيّة التي لا تترك شاردةً أو واردةً. لكنّ بطولتها لم تسجَّل بعد أن قدّمت شهادتها وشهادة مَن كانوا مسؤولين في تلك الفترة ومَن كانوا من مُجاهدي المنطقة، ولم يعترف بكلّ ذلك المسؤولون في وزارة المُجاهدين بعد الاستقلال[31]. تعاقَبَ وزراءٌ عدّة وأَفرجوا عن الاعترافات تحت الطاولة. وكان الموظّفون ممّن حفظوا وجهها وعصاها وكرسيّها المتحرِّك يقولون لها إنّ لجنة الاعترافات أُغلقت منذ أكثر من 20 سنة. انتظري، ربّما سيُعاد فتحها وتُدرَس ملفّات الاعتراف مرّةً أخرى. وكأنّهم يقولون لها لا تنتظري.

كما حكت لي أنّه في إحدى اللّيالي قرّرت 15 شابّة الالتحاق بالثورة والتسلّح في صفوف ثوّار جبهة التحرير آنذاك. فتيات من منطقة عرقوب في الأخضريّة، ممَّن تكون التقارير العسكريّة الكولونياليّة قد أفردت لهنّ حيِّزاً خاصّاً. لكنّ التاريخ المحلِّي والوطنيّ أَنكر الحادثة. لأنّ التاريخ يُكتَب من أفواه و«شنبات» الرجال وبإحساس التعالي وليس من باب المسؤوليّة التاريخيّة. على التاريخ أن يقف ليس لتخليد ذاكرة مَن عاشوا مرحلةً من المراحل، بل لإنصاف ذاكرةِ مَن عايشوا وعايشْنَ الوقائع لحماً ودماً وليس فقط بالإدلاء بشهادات خلف مكاتب «القسمات». بل لتخليد الشعب المُنتشر بين الجبال الوعرة ولا زال الكثيرون منه يعيشون أوضاعاً مُزرية ولا يزالون يُحبّون الجزائر ولا يُمكِنهم التخلّي عنها ويدفعون الثمن غالياً.

حتّى الحيوانات شاركت في الثورة

كانت والدتي تتكلّم في كلّ مناسبة عن مُشارَكة الحيوانات في الثورة لأنّها أيضاً عانت الاضطهادَ والتعرُّضَ في كلّ لحظة للموت. ومَن يسمع عباراتها قبل أن تُكمِل فكرتها

(31) بعد الاستقلال رفض والدي أن ينتسب بعضويّةٍ رسميّة لقائمة المُجاهدين، بحجّة أنّه قادر على العمل وإعالة عائلته وكان يريد أن تذهب الإعانات إلى أرامل الشهداء وأبنائهم وإلى معطوبي الحرب حيث كان يأتيه العشرات ممَّن نَاضلَ معهم من أجل أن يُقدِّموا شهاداتهم عمّا قدّماه هو ووالدتي في سبيل الاستقلال. وكان دائما يرفض. ولأنّ كلمة المرأة لم تكُن مسموعة، لم يُترك الخيار لوالدتي التي كانت ترى العضويّة تلك حقّاً من حقوقها. ومنذ العام 1995 قدَّمت ملفّها الذي رُفض بعد سنوات عدّة من دون إعطاء أيّ تفاصيل، ثمّ طُعنت في النتيجة. وبقي الملفّ في وزارة المُجاهدين. وبقيَتْ تسأل عنه حتّى عشيّة وفاتها.

يعتقد أنّها إهانة أو مُبالَغة. لكنْ بعد كمين جراح، جاءت التعليمات الصارمة والقاضية بِـ: «... أن يُغادِر القرويّون قراهم مع عائلاتهم قبل 30 تمّوز/يوليو 1957 (علماً أنّ المعركة كانت في أيّار/مايو 1956)، وسيكون محرَّماً على أيٍّ كان، إنسان أو حيوان المكوث في المنطقة التي أُخلِيَت»[32] حتّى الحيوان لم يَسلم من بطش الفرنسيّين... وحتّى هو شارك في هذه الثورة. «... البغل مسكين مُجاهِد... جاهَدَ حتّى انتهت الثورة، وعندما رحلنا إلى «قدارة» بقي مربوطاً ببيت أخوالي وحيداً حتّى قتله الثوّار. لقد جاهد سبع سنوات. في مرّة من المرّات جاء المجاهدون إلى والدتي عند الغروب وطلبوا منها أن تُعطِيَهم البغلَ لحمل أحد الجرحى. قبلت والدتي لكن بشرط، أن يُطلِقوا عليه الرصاص إذا التقوا بالعسكر أو حدث اشتباكٌ بين الطرفَين»... لأنّهم، بحسب قول جدّتي إن تركوه حيّاً فسيعود للبيت وسيحرقون كلّ ما فيه ولن تبقى زوجة مجاهد أو أيّ أحد. طمْأنها الثوّار وأخذوا البغل وانصرفوا... كما كان ابن عمّ والدتي هو مَن يُرافق الحمار في مهمّاته الصعبة وهو الطفل الصغير «أحمد» الذي على الرّغم مِن ذلك يقضي أيّاماً ولياٍل خارج القرية حيث كان يُرافقه وهو محمَّلٌ بالأسلحة، أو المُؤن عندما يشتدّ الخناق على الثوّار ولا يتمكّنوا من المجيء إلى القرية للتموين والتزوُّد بالمَأكل والمَلبس... أو أحياناً كانت تُحمَّل عليه الرسائل المُستعجلة. وهي أحمال أضيفت على مهمّات البغال والحمير التي كانت تحمل الحجارة وأكياس الزيتون والخرّوب وأكوام الحطب... الصغار فقط هُم مَن كانوا يحسّون بالحيوانات وهُم مَن كانوا يبكون ويتألّمون عندما يدوس العسكر بأحذيتهم الحديديّة على مساكن الأرانب وخمّ الدَّجاج.

بعد وفاة والدتي في 27 آب/أغسطس 2021، صمتت أخبار التاريخ الذي كانت تحمله وتقُارِنه بتاريخ التلفزيون الرسميّ والتصريحات التي كان يُعاد بثّها في كلّ مناسبة وطنيّة. وكم هو حجْم التذكير بأحداث الوطن في أثناء الاستعمار في زمنٍ كَثُرت فيه مَطالِب الحراك، وكَثُرَ المتربّصون بالوطن، وخيانة الشرفاء واعتلاء مَن باعوا ضمائرهم للشيطان أسمى المراتب... لم تكُن تؤمن بالحراك وكانت تراه من علامات آخر الزمن... ولا أحدَ سيعترف بمقدار التضحيات... وبأنّ لا أحدَ يُمكِنه إنصاف المضحّين. هناك

(32) وثيقة عرضت في وثائقي «رافائيل برانش» عن كمين باليسترو.

فقط الانتهازيّون الذين يركبون اللّحظات الحاسمة ويجعلونها مَرِنة حتّى تتوافق مع أهوائهم وأطماعهم... ليرحمكِ الله لأنّكِ جاهدتِ في سبيل الله والوطن... وأردتِ أن تدخلي التاريخ الرسميّ بنَياشينه الحقيقيّة... لكنّ مَن كانوا أعداء الثورة بالأمس القريب سبقوكِ[33]...

(33) أُخذت أجزاء من شهادات والدتي من التسجيلات التالية: تسجيل: 20 آذار/مايو 2021 ـ تسجيل 28 تشرين الأوّل/أكتوبر 2020 ـ تسجيل 12 آذار/مارس 2016.

This is not basterma

Tania-tanbak Bakalian
Safieddine

Chou ismik? Comment tu t'appelles?

Une question anodine, n'importe où, partout sur la surface du globe… Partout… sauf au Liban… C'est une question piège.

Ici, le nom…on en est porteur et il peut s'avérer une bénédiction ou un fardeau, il risque aussi de signer votre arrêt de mort, cela a été souvent le cas durant la guerre civile.

Territoire défini, parce que noms et prénoms sont porteurs de lourdes généalogies, chargés d'honneur ou de déshonneur, de tout un passé.

A ce «Chou ismik», je notais la fierté de mes concitoyens à répondre

En détachant clairement chaque syllabe, d'un ton qu'ils haussaient d'un cran, le martelant, leur nom fusant comme un tir de roquette coupant l'air. Tant il est vrai que dire son nom ici, c'est un passage au scanner, tout y est transparent, identité, confession, origine, région, territoire, union, désunion, divorces, rixes sanglantes, rendements de compte, et compte en banque, lignées et conflits de tout genre. Le scanner des familles libanaises est un redoutable outil, c'est un fichier colossal qui remonte bien avant votre naissance, bien avant celle du pays lui-même, tout y est enregistré de mémoire d'homme.

Donc voilà, mais moi j'y échappais. Complètement. En dehors de la dense trame du tissu social, quelque part, j'en étais soulagée. Dans ce pays, je suis née, j'en faisais partie, j'en partageais profondément les joies, les tumultes, les peines avec la plupart de mes concitoyens. Mais j'en étais à l'extérieur.

Moi, j'étais et je suis encore arménienne, issue d'une famille arménienne depuis aussi loin que l'on se souvienne.

Au total, en comptant large, ma famille se résume à une vingtaine de personnes, en y rajoutant quelques ramifications d'outre-Atlantique, l'on pourrait faire grimper le chiffre, l'enfler, d'une ou deux douzaines tout au plus. Evidement qu'il aurait p. être plus important mais le sort en a voulu autrement, que l'on ne se connaisse que par l'intermédiaire de ces minuscules photos en noir et blanc à bord dentelé, qui étaient soigneusement rangées dans une vieille boite à chaussure.

Chez mes amies, quand j'y allais, le passage était continu et la porte n'avait de cesse de s'ouvrir et de se refermer sur un incessant cortège d'oncles et de tantes, de cousins, d'une parente plus ou moins proche. Et c'était un constant aller-retour de tasses de café et immanquablement, j'avais droit à l'incontournable «Chou ismik». Sauf qu'avec le temps, j'avais appris à court-circuiter la question, j'avançais «Ana Armaniye», je suis arménienne.

Et j'avais bien raison, c'était suffisant, pas la peine d'en rajouter

Aaaaah…. Ok…. On se détournait et l'intérêt était tombé. De facto il était évident qu'on était hors-jeu.

Sauf, parfois, cela éveillait un intérêt soudain qui se voulait affable, gentil, «Ah, le basterma, c'est tellement bon, mais dommage pour l'odeur».

Personnellement je maudissais cet infame basterma, c'était inévitable, au «ana armaniye» j'avais droit à un exposé sur la relation qu'entretenait mon interlocuteur avec le basterma.

S'il est vrai que mes parents venaient d'un ailleurs douloureux, la branche paternelle de Kayseri et celle de ma mère originaire d'Izmir, moi je suis née à Beyrouth, à cette ville me lie un amour déraisonnable.

A Beyrouth comme à Izmir, il y a la mer. Beyrouth, cette ville est pour moi ce qu'Izmir a été pour ma metz-mama Victoria et Kayseri pour

ma metz mama Haigouie. Toute ma vie a été partagée entre cette trinité de villes Beyrouth/Izmir/kayseri.

Izmir…

Je ne sais pas quel était son âge exact quand cela s'était passé. Au tout début de l'adolescence, je présume. En fait, on ne le lui avait jamais demandé... pas plus qu'autre chose d'ailleurs. Aujourd'hui, j'ai tellement de questions, de trous à combler, de sombres obscurités à éclaircir, des évidences à vérifier...

Mais bon... Nous étions des enfants, à qui ma grande mère racontait des histoires, d'un temps autre, d'un temps si éloigné du nôtre et à qui avec l'avidité de vivre pleinement notre présent, toutes ces histoires d'un passé semblaient révolues et dépourvues d'intérêt.

Pour nous, cela était le passé, le passé comme un fardeau, un héritage douloureux dont il fallait coûte que coûte se défaire afin d'entrer de plein pied dans la vie.

Or on ne savait pas... on ignorait que le passé possède des tentacules qui te rattrapent, te hantent, que le passé est aussi vivant que les herbes folles qui envahissent les champs résistant à tous les produits censés les éliminer.

Malgré notre jeunesse irréfléchie, nous étions imprégnés jusqu'au tréfonds de notre corps par son histoire... C'est ainsi que se fait la transmission. Non?

Moi je voulais avancer en regardant droit devant, je proclamais haut et fort qu'à marcher en regardant en arrière, on risquait à coup sûr de trébucher, de se cogner contre les murs ou tout simplement faire du surplace.

Cependant, malgré notre jeunesse irréfléchie, tout un passé s'infiltrait insidieusement à notre insu, érigeant les bases d'une entité propre, forte d'une culture et d'une langue.

Donc ce n'était pas moi qui habitais les villes, ce sont les villes qui m'habitaient.

Izmir. Victoria est ma grand - mère maternelle d'Izmir. Haigouie, ma grand-mère paternelle de Kayseri. Ma mère fille de Victoria d'Izmir est née en Egypte et mon père originaire de Kayseri est né à Chypre.

Moi je suis née à Beyrouth, mais je charrie en moi un peu de tous ces pays,

Mais c'est d'elle de Victoria que depuis le début je comptais narrer l'histoire…

Je la revois, assise bien droite égale à une reine, toute tendue dans le souvenir, l'évocation de ce qui fut sa vie d'enfant, en errance sur les routes... des larmes qu'elle ne prenait pas la peine d'essuyer, loin, si loin de nous… dans un moment et un lieu autre, dans ce moment qui avait cassé sa vie en un avant et un après... Toute tendue vers ce lieu qui était devenu, qu'elle a transformé en paradis imaginaire, pas seulement pour elle, mais pour nous aussi. Izmir, sa ville natale, ville mythique...

La mer... le ciel... les étoiles... le vent... le goût du poisson d'Izmir était inégalable, nul endroit sur terre ne pouvait l'égaler. On la contrariait, on s'offusquait par jeu, voyons, mais c'est la même mer, notre bonne vieille méditerranée, la même qui court entre Beyrouth et Izmir... Pfft. Vous n'y comprenez rien... trop jeunes... avec l'âge, vous saurez. Et ses yeux dérivaient vers ce lointain rivage.

Et aujourd'hui, à y repenser, on se demande quel est ce lien étrange d'enracinement, qui l'attachait à un pays, à une terre, à une ville qu'elle avait à peine connue, dont elle avait été arrachée à l'approche de l'adolescence… Parce que j'en conclus que lorsque la famille a pris le chemin de l'exode, elle devait être à mi-chemin entre la fin de l'enfance et l'adolescence.

C'est par elle que j'ai cette fascination pour des villes. Ils ont quitté Izmir et elle a dû subir la traversée du pays cachée sous d'épais édredons... parce qu'elle était fille et jolie de plus, ce qui peut être un atout, mais être jolie peut être une arme à double tranchant et attirer le malheur... He oui.

Les quelques pièces d'or qu'ils avaient échangé contre leurs biens étaient cousues à l'intérieur d'une ceinture dont je ne sais pourquoi elle devait endosser la garde contre sa peau. Et cette responsabilité précoce à assumer, si elle avait aidé à forger sa personnalité, ne lui avait pas ôté les joies enfantines... car l'étonnement subsistait en elle, malgré l'exode subi, les privations et les pertes, les peurs et la tristesse... une joie sereine émanait d'elle.

Rire, chanter, prendre la vie à bras le corps, s'emparer de chaque minute du présent pleinement, lavée de toute amertume et rancœur, elle a certes été un phare dans notre vie.

Bien plus tard, quand elle était de passage chez nous et qu'elle partageait ma chambre, j'ai souvenir de ses nuits mouvementées où elle n'avait de cesse de rejeter couvertures et édredons, pour les ramener ensuite à elle, pour les envoyer culbuter par la suite, en une valse perpétuelle. Ainsi les nuits avaient lieu de terribles batailles nocturnes avec oreillers et édredon, non, plutôt avec mes rêves me disait-elle confusément au matin. Rêves... elle le disait poliment pour ne pas dire cauchemars. A ces vieux jours, avant de s'en aller définitivement, elle n'a pas arrêté le cache-cache avec les couvertures, mais alors, là, cela était devenu audible, la peur tétanisée qui la hantait remontait à la surface... «Ils arrivent…Ils arrivent...» hurlait elle

«Vite, vite, faut se cacher», et elle s'enfonçait sous la couverture, pour ensuite, avec mille précautions, risquer un œil terrorisé pour s'assurer de ce qu'il n'y avait aucun ennemi en vue. Mais en fait, il était tapi en elle, il s'y était logé à son insu, elle le combattait avec grâce, de par son sourire avenant à la vie. La vie, les chansons, la danse, elle se cadenassait dans un optimisme forcé, gracieux pour occulter un ravage intérieur.

La différence entre elle et les autres Arméniennes qui avaient connu le même sort était qu'elle ne s'était pas murée dans un tragique silence... Ce silence tout de noir vêtu, dans un deuil éternel, où étaient enterrées vives les voix qui avaient été témoin de l'horreur dont est capable l'être humain envers un autre.

Il y a quelques années, je me suis jointe à un groupe d'Arméniens afin de visiter les lieux d'où leurs familles était originaire. Cela avait tout l'air d'un pèlerinage, et je ne sais si c'était une bonne idée, parce que ce voyage dans la Turquie d'aujourd'hui m'a laissé un goût bien amer. J'ai failli à la promesse que je m'étais faite de ne regarder que droit devant. On a parcouru en tous sens ce pays qui avait été le nôtre, la terre d'où l'on a été chassé et que notre imaginaire a conservé, comme une petite part de paradis.

Izmir et Kayseri sont devenues de grosses villes marchandes, bouillonnantes d'activité, à aucun coin de rue, je n'ai p. déceler la moindre trace ou empreinte de mes metz-mama. Et je ne sais plus si cela m'attristait,

m’enrageait ou me révoltait, le fait que leurs vies aient été cassées de manière irrémédiable alors que la vie suivait son cours et prospérait là - bas comme si rien n’avait eu lieu.

Je termine ces lignes et je viens de lire la déclaration de reconnaissance du génocide par Mr Biden. Un nœud dont je n’avais jamais réalisé l’existence quelque part entre le cœur et l’estomac s’est défait…

Victoria, Haigouie, il aura fallu 105 ans pour le reconnaitre? Est-ce que cela vous soulage?

«ستشرق الشمسُ ولو بعد حين»[1] رواية للكاتبة تغريد عارف النجّار

ريما زهير الكردي

«**ستشرق الشمس ولو بعد حين**» رواية لليافعين صادرة في العام 2017، تستعرض فيها الكاتبة تغريد عارف النجّار، وعبر 242 صفحة من القطع المتوسّط، أحداثَ الحربِ في سوريا منذ بداياتها، مُتابعةً تداعياتها وتعقيد أحداثها المؤثِّرة. وتجري الأحداث في عائلة من الطبقة المتوسِّطة تُعبِّر عنها شخصيّة الفتاة المُراهِقة «شادن»، الطالبة في المرحلة الثانويّة وذات الاهتمامات التي تُشبه مَن هنّ في عمرها وجيلها. تحبُّ كرة السلَّة وهي قائدة الفريق في مدرستها، أبوها سوريّ وأمّها فلسطينيّة، ومن هذا النسيج المُختلَط تحوك النجّار تفاصيل تغيُّر المشهد السياسيّ وانعكاساته على النواحي الاجتماعيّة والاقتصاديّة للعائلة كنواةٍ لمُجتمعٍ ممتدٍّ، وانعكاسات الحروب على الحياة النفسيّة والاجتماعيّة للفتيات تحديداً.

في أحداثٍ مُتسارعة، وضمن خطٍّ زمنيٍّ متّسِق، ترصد الكاتبة بدايات الثورة السوريّة وانعكاسها على حياة أسرة من الطبقة المتوسِّطة بتوظيف الأدب الواقعيّ بعيدًا عن الفانتازيا أو الخيال المُفتعل. وقد ظَهَرَ هذا النَّوع الأدبيّ في أدب الطفل عقب انتهاء الحرب العالَميّة الثانية. فبعد أن كان أدب الطفل قبل ذلك يرتدي، في معظمه، عباءة الفانتازيا والخيال السحريّ وقصصَ

(1) تغريد عارف النجار، **ستشرق الشمس ولو بعد حين** (المَمْلكة الأردنيّة الهاشميّة: ط 2، دار السلوى للدراسات والنشر 2020).

الجنيّات، تحوَّل مع ضجيج طبول الحرب وويلاتها إلى أدبٍ واقعيٍّ بامتياز. فللحرب حضورٌ صادِمٌ تَمَظْهَرَ في مَفاصِل حياة المُجتمعات الأوروبيّة آنذاك، فانتقل الكُتّاب إلى توجيه الأطفال والفتيان نحو واقعهم ليتعرّفوا إلى تبعات الحرب وتوعيتهم لتخفيف الصدمات الاجتماعيّة والاقتصاديّة النّاتجة عنها، ولذا فإن اختيار هذا النوع هو الأكثر ملاءمة لمُجريات الرواية هذه، وخصوصاً أنّ النجّار تنطلق من الخاصّ إلى العامّ.

في رواية «ستشرق الشمس بعد حين» لم تكُن الكاتبة تغريد النجّار بمعزل عن تلك التحوّلات الكارثيّة التي عصفت بأجيالٍ من الأطفال والفتيان العرب خلال أكثر من سبعين سنة، وهي التي كتبت في تحوُّلات الواقع السياسيّ والاجتماعيّ وأَبرزت دور الفتاة في مُجتمعها. فالنجّار تُقدِّم نموذجَ الفتاة القويّة والمؤثِّرة في محيطها، القادرة على صنع التغيير الإيجابيّ، وفي ذلك دعم لموقف الفتاة عموماً في مُجتمع ما زال ينظر إليها كمواطن من الدرجة الثانية. هذا فضلاً عن أنّ الشخصيّات الأنثويّة في روايتها هي نِتاج آلام الحروب وانعكاسٌ لتراجيديّتها؛ بحيث نجد أنّ نماذج النساء والبنات في الرواية عبَّرت عن واقعهنّ كضحايا بشكلٍ مباشر، ومثال ذلك:

«زهرة» وتمثِّل النموذج الأوّل، وهي أمّ ماجد وشادن. تهجّرت عائلتها من فلسطين في نكبة العام ١٩٤٨، وكبرت في سوريا وعانت مع أسرتها من الشتات بمعزل عن الوطن الأمّ. تزوّجت بأبي ماجد التاجر الدمشقيّ، وعلى لسانه يَرِدُ جزءًا من مُعاناة عائلة زوجته وحرمان أفرادها من حريّة السفر والانتقال مِن دون معوِّقات: «لا أقدر أن أفكِّر أو أتخيّل أنْ أترك هذا البيت الذي عملتُ أنا ووالدتكِ على بنائه بجهدٍ ليحتضنَ عائلتنا. أتذكَّر أيضاً ما حلّ بعائلة والدتكِ بعد أن خرجوا من فلسطين. فقدوا كلّ مُمتلكاتهم ووجدوا أنفسهم في مخيَّماتٍ للّاجئين بعيدين عن وطنهم، يُواجِهون أشدّ الصعوبات في السفر والتنقُّل من بلدٍ إلى بلدٍ آخر»[2].

المصير الذي صارت إليه «زهرة» منذ طفولتها وخروج أهلها كلاجئين مِن دون الحصول على الجنسيّة في بلاد المَهجر الجديدة كان عائقاً أمامها وأمام أسرتها. أمّا مَنْعُهم من التنقّل فيتنافى مع المادّة رقم (7) من اتّفاقيّة حقوق الطفل المُعْلَنة في ميثاق

(2) تغريد عارف النجّار، المرجع السابق، ص 30.

الأُمم المتّحدة. اِنتهت حياة زهرة برصاصة طائشة في المخيَّم في لبنان، وهي التي لجأت إليه من الموت في سوريا!

النموذج الثاني الذي جاءت به النجّار في روايتها، والذي يُظهِر خَرْقاً آخر لمبادئ وثيقة حقوق الطفل الصادرة عن الأُمم المتّحدة، يتمثَّل في ابنة الخال «سنيّة» التي أصبحت امرأة صغيرة أحلامها لا تتعدّى حاكورة المنزل البسيطة، تركت «سنيّة» المدرسة بعد الصفّ الخامس لأنّ تحصيلها لم يكُن جيّداً، وبقيت في البيت تُساعِد والدتها في تربية إخوتها[3].

«سنيّة» هي انعكاسٌ لمحدوديّة إمكانات مَدارِس المخيَّم، فقدَرها أن تُحرَمَ من التعليم كنتاج النكبة التي أدّت بأهلها للهجرة، وهو ميراثها من حربِ تطهيرٍ عرقيّ قام به الصهاينة لطرد السكّان الأصليّين لفلسطين والحلول مكانهم وسلْب مُمتلكاتهم وأراضيهم. «سنيّة» فتاة فقدت فرصة التعليم بسبب عدم توافُر الظروف المُساندة لطفلةٍ تُعاني من صعوبات تعلُّم بشكلٍ ما؛ ومن جديد نرى أنّ الحرب لا تُحقِّق تطبيق المادّة (24) من الوثيقة العالَميّة لحقوق الطفل التي تنصّ على كفالة فُرص التعليم للأطفال لتبقى كثيرات من فتيات اللّجوء على هامش الحياة.

تنعدم البنية التحتيّة للمَدارِس بشكلٍ عامّ وللمنظومة التعليميّة في مخيَّمات اللّاجئين بشكلٍ خاصّ، وبالكاد يكون هناك برامج داعمة لذوي صعوبات التعلُّم ولمَن لديهم تحصيل ضعيف، وبالتالي فالفتاة «سنيّة» فاقدة لثقتها بقدراتها لقصورها عن اللِّحاق بسلّم التعليم بما يؤدّي إلى أن تصير شخصيّة تعاني من الدونيّة أمام قريناتها، ولذلك ساءت علاقتها بابنة عمّتها «شادن» بعد أن كانت مميَّزة في زمنٍ سابقٍ عندما كانت الفتاتان صغيرتَيْن.

الحروب تُدمِّر الحَجَر والبَشَر، وعلى الرّغم مِن القدرة على إعمار البنيان إلّا أنّ الشروخ التي تقع في الإنسان نفسه لا يُمكِن ترميمُها بيُسرٍ وخصوصاً في الحروب التي تستمرّ لعقودٍ من الزمان؛ إذ تفشل محاولات تعويض الفاقد التعليميّ في استدراك الواقع ليبقى الطفل هو الحلقة الأضعف في مُجتمعات الصراع. وفي حين يتَّجه الفتيان إلى

(3) المرجع نفسه، ص 119.

العمل اليدويّ أو المهنيّ، نجد أنّ التحدِّيات تتراكم على الفتيات تحديداً لفقدانهنّ سُبُل التعلُّم وانعدام فُرص التقدُّم العلميّ الذي قد يُحقِّق لهم الإنجاز الأكاديميّ ويُعينهنّ على الاستقلال النفسيّ والاقتصاديّ والتنعُّم بحياةٍ كريمة. فمِن دون التعليم سينتظرهنّ مستقبلٌ غامضٌ لا يحمل من الاحتمالات الإيجابيّة الكثير، فأيّ أمل ينتظر «سنيّة» ابنة اللّاجئ الفلسطينيّ «توفيق»؟

أمّا النموذج الثالث الذي استعرضته النجّار فتمثّل في شخصيّة «ريم». ففي تصاعُدٍ دراميّ، نرى التحوُّلَ الذي مرّت به بعد أن كانت تتمتّع بروح مُنطلِقة وبثقة بالنَّفس وتعدّد الصداقات في حياتها الاجتماعيّة العامرة: «ما إنْ فتحت ريم بابَ بيتِها حتّى قَفَزَ الجميع من مخابئهم وهُم يصيحون: عيد ميلاد سعيد يا ريم، عيد سعيد».

بعد هجرة عائلة «ريم» بسبب القصف الذي تعرّضت له الأحياء السوريّة ونجاة الناس بحياتهم، لجأت عائلة «ريم» إلى الأردن حيث يتنامى شعور الابنة «ريم» بالغربة، والوحدة، وانعدام الهدف في الحياة: «**وَجَدَ أخي عملاً كبائع في مَتجر للملابس، وأنا أيضًا وجدتُ عملًا في صالون شعر. أغسل شعر السيّدات وأُهيِّئهنّ لقصّ الشعر وأصنع لهنّ القهوة والشاي... أين ذهبت أحلامي بأن أُكمل دراستي الجامعيّة؟**»[4].

الحروب لا تهدم البيوت والمُمتلكات والثروات الماديّة في المُجتمع، بل تهدم أحلام الفتيات وآمالهنّ لتضيع ملامح المستقبل الذي ينكمش ويفقد ملامحه في عيونهنّ وقلوبهنّ.

عمدت النجّار إلى اختيار عددٍ من النماذج المتأثِّرة بواقعها والتي توصف بأنّها ضحيّة حروبٍ طاحنة وويلاتٍ نتج عنها دمارٌ نفسيّ وعلميّ وانغلاق المُستقبل أمام الفتيات. إلّا أنّ النجّار أيضاً أَنضجت نموذج الفتاة «شادن» الذي ظهر متفرّداً بسبب سلسلة مواقف مرّت بها الشخصيّة من خلال السارد العليم الذي اختارته في السرد لكتابة روايتها، وتسجيل وقائع الحرب السوريّة التي بدأت في ربيع العام 2011.

عبر 68 فصلاً كلٌّ منها مُعنْوَن بما يُلخِّص المحتوى، يبدأ الراوي بفصل «أخبار سارة»، وتنتهي الرواية بفصل «سامحيني يا أختي»، وما بينهما رحلة مُعاناة وطن بجغرافيّته

(4) تغريد النجّار، المرجع السابق، ص 75 ـ 76.

وديموغرافيّته، حيث اختارت النجّار شخصيّة «شادن» لتكون هي الشخصيّة الرئيسة في هذه الرواية. «شادن» تجد نفسها خلال شهور قليلة خارج المكان تماماً كما كانت أمّها، لكأنّه ميراث تتوارثه أجيالٌ تحمل في أقدارها ويلات الحرب، تَرِثُ صراعاتٍ لا ناقة للأطفال فيها ولا جَمل، يرزحون تحت وطأة التشرُّد والشتات الذي يُربّى في المخيّمات والمَهاجر.

تظهر آثار الصراع على الفتاة «شادن» في بنية دراميّة مُتصاعدة ابتداء من الصفحة الأولى، «**بينما كانت تفتح باب الشقّة، انقلبت حقيبة المدرسة وبدأت الكُتب تسقط منها تباعاً على الأرض**»[5]، وبهذه العبارة العابرة تمّ التوطئة لكلّ الانقلاب الذي حَدَثَ في سوريا وبَعْثَرَ أوصالها.

عندما رتّب «إبراهام ماسلو» هَرَمَ الاحتياجات الإنسانيّة صنّف الأمنَ في المرتبة الثانية. على أنّ انعدام الأمن أيضاً يُسبّب تناقصَ موارد المعيشة التي تؤثّر تلقائيّاً في الأولويّات الأساسيّة من مأكل ومشرب. وقد أثّر انعدام الأمان في الفتيات وأصابهنّ بصدمةٍ نفسيّة عميقة.

إنّ الخطر الذي تُسبِّبه الحروب ينقسم إلى نوعَين:

النوع الأوّل وهو الضرر الماديّ الذي تمظهرَ في حياة «شادن»:

- توقُّف تجارة الأب وعدم قدرته على مُتابعة عمله بسبب القصف المستمرّ على الأبرياء.
- هدْم البيت بصاروخٍ في حيٍّ تهدّمت معظم مبانيه على رؤوس المدنيّين.
- انقطاع «شادن» عن الدراسة، وعن مُمارَسة هوايتها في لعبة كرة السلّة.
- انقطاع «شادن» عن الأصدقاء والمُحيط الاجتماعيّ.

النوع الثاني: الضّرر النفسيّ المعنويّ وتمظهر في مُعاناة «شادن» في المواقف الآتية:

ـ مُشاهدة إذلال أبيها أمامها مِن إحدى جهات الصراع السياسيّ، لكون الأب يُمثِّل السند والقوّة للفتاة، ولكون إذلاله هو انكسار لها. ولكنّها قاومت بعنفوان ورفضت هجومهم على بيتهم بكلّ ما أوتيت من قوّة.

(5) تغريد النجّار، المرجع السابق، ص 5.

ـ افتعال القوّة والتماسُك كي تُحافظ على إيقاع البيت في حال سلام بعد اختفاء أخيها وقلق والدَيها عليه.

ـ توقُّف «شادن» عن الذهاب إلى المدرسة خشية القصف المُستمرّ، بما يُشير إلى تعطُّل حياتها الطبيعيّة المُعتادة.

ـ مرض الأب وموته عند رؤية بَيتِهِ وقد صار رمادًا.

ـ الهجرة من سوريا الوطن والنزوح إلى المخيَّم في لبنان عند الخال الفلسطينيّ اللّاجئ أصلاً، والشعور بالنبذ من قِبَل زوجة الخال وابنته الكبرى.

ـ عمل الأم كخيّاطة لدى إحدى النساء بعد أن كانت ربّة بيت لزوجٍ مُقتَدِر مادِّيّاً.

ـ عمل «شادن» غير القانونيّ في لبنان واحتمال القبض عليها والقلقً المُرافِق للمُجازَفة لتأمين مال يساعدها وأمّها على البقاء في منزل خالها.

ـ مَوت الأم برصاصة طائشة بسبب عرس ما، وفق ما يُعرَف بمُفارَقة الموقف، ويُتْمُ «شادن» الذي هزّ أركان ثباتها عميقاً، **إذ «تدخل شادن في نفق طويل... تبتعد فيه عن كلّ ما حولها... تجلس كالصنم، تنظر أمامها ولا تتفاعل مع أيّ أحد..»**[6]. وعندما تمّ صفعها لإعادتها من نفق الصمت إلى الواقع، **«نفرت الدموع من عيَني شادن وانفجرت في بكاءٍ طويل وعويلٍ يقطع نياط القلوب... وهي تصرخ: لا ... لا... لا... ظلّت تنادى: أم... أمي... أمي... لا تتركيني يا أمي... لا تتركيني»**[7].

ـ ركوب «شادن» قوارب الموت للوصول إلى إيطاليا مِن دون وجود أيّ ضمان للنجاة.

ـ انتقال «شادن» داخل أوروبّا من مدينة إلى أخرى تقتات على رغبتها بالحياة والوصول إلى برّ الأمان عند عمّها في السويد.

ـ الاغتراب النفسيّ والجغرافيّ والثقافيّ الذي شعرت به في السويد أو ما يُعرَف بالحلّ البديل للحياة الآمنة.

ـ ومن الصدمات المفصليّة التي واجَهت «شادن» وكادت أن تعصف بمستقبلها مُحاولة تزويجها من رجلٍ يكبرها بعقودٍ عدّة بتدبيرٍ من جارة زوجة خال شادن بعد وفاة

(6) تغريد النجّار، المرجع السابق، ص 163.

(7) المرجع السابق، ص 164.

والدتها: «**إنّه رجل مقتدر، ستّ تعيش في العزّ والدلال وسيدفع لخالها مهراً محترماً..**»[8]. لكأنّ الصفقة واجبة الحدوث مع رجل يبلغ من العمر خمسين عاماً ومتزوّج وله أبناء.

هذا الموقف حرَّك «شادن» وأعادها إلى رشدها كي تُجدِّد حياتها وترفض أن تكون سلعة تُباع وتشترى. هزّ هذا الحديث شادن عندما سمعته خلسةً وأَخرجها من حالة اللّامبالاة والاكتئاب[9]، وكان المُحرِّك نحو قرارها بركوب القوارب المحفوفة بالموت للهرب إلى أوروبّا حيث عمّها المُقيم في السويد. فرزحت «شادن» تحت مسؤوليّة عظيمة عبّرت عنها النجّار في وضعها الحزام الذي أوصاها أبوها لتتمنطق به حول خصرها مِن دون أن يفارقها مهما تقلّبت الأوضاع، وفي ذلك الحزام أوراق العائلة الرسميّة ومبلغٌ من المال.

هذا الأمر جَعَلَ من «شادن» الوريث الشرعيّ للتراث والميراث بمعناهما المعنويّ والماديّ، وهذا ثقل عظيم يقع على كاهل فتاة في بداية وعيها. فقد رافقها الحزام من سوريا إلى لبنان مروراً بتركيا وإيطاليا وعدد من المُدن الأوروبيّة حتّى وصلت إلى السويد حيث الملجأ الآمن. وهنا كانت لحظة الانفجار العاطفيّ بعد تراكُم الحزن والكبت الذي عانته عندما «**سألها أحد المسؤولين عن أهلها وعن سبب مغادرتها للسويد. لم تستطع شادن أن تتمالك نفسها عند ذكر أهلها فانفجرت باكية وهي تقول لهم إنّها أصبحت يتيمة الأبوَين**[10]، وهذا كان ذروة التأثير الذي تركته الحرب على «شادن» بعد سلسلة ويلات مرّت بها.

تسلّط رواية «ستشرق الشمس ولو بعد حين» الضوءَ على الواقع المؤلم الذي عاشته كلُّ فتاة بسبب الحرب، والتردّي النفسيّ الذي نزفت بسببه آلاف العائلات والمآلات التي تدنَّت فيها الآمال، وتهشّمت على صخور واقع الهجرة واللّجوء وتشرُّد الأحلام. غير أنّ النجّار أفسحت للأمل مجالاً فواربت له باباً عندما ألحقت «شادن» بعمّها في السويد لتبدأ حياة جديدة. فتوَّجت قفلة الرواية بضرورة العودة إلى العِلم والتعلّم كسلاح لكلّ فتاة من أجل الاستمرار، «**سمعت شادن نقرًا على الباب... إنّها آنّا... دخلت وفي يدها كومة من**

(8) المرجع نفسه، ص 167.

(9) تغريد النجّار، المرجع السابق، ص 167.

(10) المرجع السابق، ص 220.

الأوراق... تريد أن تتحدّث معها عن الجامعة التي ستسجِّل فيها بعد أن تتخرّج من معهد اللُّغات»[11].

رواية «ستشرق الشمس ولو بعد حين» رواية غارقة في واقع الوجع السوريّ وطوايا مأساة كلِّ فتاة تحمّلت نصيبها من تلك الفواجع المُتلاحقة التي تنتج عن أجواء الحروب، فضلاً عن الزعزعة السياسيّة والاجتماعيّة والتفسُّخ الحياتيّ الذي يُلازم الفتيات نظراً لأنّ الأنثى دائماً أكثر عرضةً للقلق النفسيّ من الذكر. فكلّ ما سبق من مُواجهاتٍ وسيناريوهاتٍ حياتيّة في الرواية يعكس ما مرّت به كلُّ فتاة سوريّة بشكلٍ ما، أو على الأقلِّ بعض ما واجهت منه. وهي مُواجهات لا بدّ مِن أنّها تركت رعباً ما يهزّ أوصال النفس ويُفتِّت استقرارها الداخليّ لتصيرَ الفتيات في حال تهديد نتيجة فقدان الوطن والأمان والنزوع إلى القلق والتوتُّر من مُستقبل غامض لا يُعرَف له نهاية حتّى تضع الحرب أوزارها.

تنفرد هذه الرواية بموضوعها وتفاصيلها وبإظهارها دَور الفتاة الصامدة والمُثابِرة العاشقة للحياة والمؤمنة بالحبّ، فتاة لا يُفَتُّ عضدها مهما آلت إليه الأحداث. استطاعت النجّار أن تُبدِع رواية مُلهِمة لكلِّ فتاة كوّنتها مركّبات فريدة لا تقبل الهزيمة ولا الانكسار فتصير مبعثاً للأمل المتجدِّد والتوجُّه الحيويّ نحو الفعل الإيجابيّ على الرَّغم مِن كلّ القهر والظلم وتردّي الأوضاع. لذا لا بدّ من تدريس هذه الرواية ومُشاركتها فتيات هذا الجيل والأجيال المُقبلة أيضاً كونها تنتصر للفتيات صانعات الحياة.

المصدر: تغريد عارف النجّار، **ستشرق الشمس ولو بعد حين**، دار السلوى للدراسات والنشر، المَمْلكة الأردنيّة الهاشميّة، ط 2، 2020.

(11) المرجع نفسه، ص 242.